

ساعات الكبرياء

ادوار الخراط

دار الآداب

Bibliotheca Alexandrina
0017798



ساعات الكبرياء

ادوار الخراط

ساعات الكبرياء

مجموعة قصص

دار الآداب - بيروت

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٩٩٠

تحت الجامع

ـ أمَّه هاتي قرش. .

ـ يوه جاك قرش لما يقرشك، هو انتِ يا بتّ ما تشبعيش قروش؟ طب سدي سد. هو أنا قاعدة لك على بنك يا بت، وإلا على حنفية قروش؟ قال إيه قال قرش. . صباحي وليلاتي على الله قرش. هو انت يا بت ما تستكفيش نيلة قروش؟ إنت مش لسه واخده قرش امبارح من أبوك، وقرش اصطبحت بيه على وش الصبح؟

والبنت ثبتت عينيها بوجه أمها، يربطهما به سحر الكلمات القاسي. الكلمات اللاذعة تنثال عليها، لن تكف أبداً، تتقلب وتئز كأنما تخرج عن موقد الجاز وهو يفح في عتمة العصر التي توشك أن تطمس معالم الغرفة.

أمها تربعت أمام النار، تقلّب الطاسة بالملعقة الكبيرة الصدئة، ورائحة الباذنجان السخن سطعت في الهواء المحبوس. التفتت إليها أمها لفتة خاطفة تكويها بنظرة من العينين اللامعتين بألق أسود صلب. وهج النار ينعكس على الوجه الأسمر

المتهضم، النضر مع ذلك بسخونة متضرجة. والمدورة تحبك الرأس وتلف الشعر الأثيث.

انحنت البنت على عروستها النائمة وسط كومة مهوشة من الخِرَق، وأزاحت العلب الصفيح والنفايات اللامعة على أرض الشرفة الضيقة، تحت ألواح الخشب المائلة على الحارة.

ورفعت عروستها إليها، خرقة أخرى ملفوفة محزومة بشريط ناصل، تتدلدل منها ساقان خرعتان لا قوام لهما، وذراعان إحداهما أطول من الأخرى وأسندت بيدها الرأس المحبوك بمزْقة من مدورة أمها، لم يبق فيها إلا بضعة أقراص دقيقة متلالئة من الترتر الأزرق. ما أجملها وما أرقها، تبتسم لها من عينين لا يعرف أحد غيرهما جمال نظرتها، وابتسامتها حلوة، وجسمها اللدن الهفهاف طيّع في يديها بحاجة إلى الحنان الذي يدر به صدرها ويغرقه.

ضمتها وابتسمت لها ابتسامة حميمة، واستدارت بها إلى جنب فلا يعود في العالم سواهما، والحنو والرقة. تطويها إلى صدرها الضيق الناحل، وتربت شعرها الكثيف المسرح، أصابعها، هي وحدها، تعرف مسته الناعمة. ابتعد أزيز النار ونشيش الكلمات والزيت المغلي. ولم يبق الا الشرفة المزحومة.

وهي تلتصق بلحاف مطوي قديم نبتت عليه نتف ملبدة من القطن المصفر، واللحاف يرتفع كأنه سد طري يحلو الاختفاء وراءه.

لم تكـد تنعم بكنّ مخبئها، وتنحني عـلى عروستهـا حتى وخزتهـا فجأة شظيـة ناتئـة من السَبُت المدور، تـطل منه رؤوس البصـل والثـوم النـاشف التي ضربتهـا الشمس. ونـدت عنهـا صرخـة، مكتومة كـأنها ذنْب. وخطفت يـدها مكهـربةً بـالألم فاصـطدمت بـأعناق زجـاجات الخـزين المسدودة بـالخرق، تكثفت في قـاعها صبابات من مـاء الزهـر والخل والسـبرتو. وهي تمص إصبعهـا، كأن في فمها حساً بالـدم الذي انبثق منـه يومـاً عندمـا كشطتـه زجاجة مكسورة العنق، لولا أن حجزته أمهـا عندمـا ربطت لهـا إصبعها بخرقة صوف.

ونور العصر تُريقه عليها سماءٌ ضيقة جافة محصورة بين سطوح البيوت ومئذنة الجامع الضخم العتيق. والحر آخذ بالنفَس.

ـ ماجدة، يا بت يا ماجدة يا مدهولة على عينك، انت ما لك يا بت؟ بانده عليك بقى لي ساعة وانت مـا ترديش يـا بت؟ هو انت اتلجمت، اتلبشت خـلاص؟ أعمـل إيــه في البت دي يـا خـواتي؟ قومي عـلى حيلك يا مضروبـة في جنبك هـاتي لي غـطا الحلة.

هـذه الولـولة تـدق قلب البنت، تفاجئـه بضـوء سـاطـع من الـرعب، فتنهض مدفـوعة كـأنما بـرغمهـا انـتزعتهـا الصرخـات وبطحتها على أرض صلبة، وعيناها معلقتان بالوجه الندي بعرق السخونة الخفيف، والعينين المتألقتين بسعار جاد.

- اسم الله عليك وعلى أخـوك، طب قومي يـا ختي يا حبيبتي يالله، مش تفتّحي يا ضناي!

بادرت الكلمات الحانية تلحقها كأنما لتقيلها من عثرتها. كانت ذراعاها تضربان الهواء، خانتها ساقاهـا اللدنتان، في لهفتهـا على الجري إلى أمها، فاندفعت عتبة الشرفة تخبطها وتصدها.

لانت العينان الصخريتان وتسايل فيهما حنو تكسرت من فوقه القشرة الجامدة. وسال الدفء في قلب البنت كماء ساخن يحمـل أمـامـه السـدود. وقـامت تجـري في أمـان رحيب وهي تـدعـك جنبها. ولم تبك.

وعندما عادت إلى جنب اللحاف أسندت ظهرهـا إلى نعومتـه الدسمة. هـذا الجانب العـالي منه يؤويهـا الآن، دون لهفة ودون خوف. وقد عـاد إلى الغرفـة صمت خلا من الـطنين، وهمـدت الرائحة الكثيفة.

أخـذت عـروستهـا عـلى مهـل في حضنهـا. خـداهمـا الآن متـلامسان. وهمـا تنظران معـاً إلى دكان العجـلاتي المفتوح جنب باب الجامع الكبير.

تغيبان معاً في نشـوة من تأمـل العجلات السـوداء مرصـوصةً حتى السقف، وكـأن أيديهـما تتحسس معـاً نعـومـة الـدراجـات المقلوبـة المعلقة عـلى الجدار، في قـاع الدكـان، مصقولـةً فضيـةً تومض في العتمة. تنبثق الأسلاك من بؤرتها، في أشعة هفهافة، مندفعة ومشدودة، محبوسة في توتـر دائري لا تشبـع منه العـين.

وفي الخارج جدران الجامع الضخمة قائمة بأحجارها الكبيرة العتيقة، انبرت القشرة عن مربعات الحجر هنا وهناك وتعرى لحمها الحلبيي الأبيض منوراً في السواد الذي تركته أجيال طويلة من التراب ومس الأيادي.

وهي تناغي العروسة، في كلماتها نبرة من صوت أمها ـ أمها الأخرى الحلوة:

ـ عايزه قرش يا حبيبتي؟ خدي يا ضناي، خدي آدي قرش. حتشتري بي إيه؟ كراملة.. وحمص.. ومصاصة.. وبسكوت كمان، تقرقشيه لوحدك وما تديش منه لحد.. إنت عايزه تنزلي في الحارة دلوقتي؟ طب انزلي يا ختي.. خلي بالك من السكة.. مسافة السكة وتيجي على طول.

في همس حميم، والعروسة تصغى وتبتسم، وجهها المصنوع من الخرق منور وضاح، وتسلم نفسها للحضن الرقيق.

ـ أَمَّه عايزه قرش، أمه هاتي.. هاتي قرش..

في ضراعة وخفوت وتردد، ولكن بثقة أيضاً، في دل من يعرف أن اللحظة حانت والقطاف دنا، وفي مكر.

ـ يوه هو انت يا بت الليل عليك اسمه قرش، خلاص علّقت،، طيب يا قرشانه انت، طيب. روحي ياللا.. قدامك على رخامة البورية فيه قرش أهه تحت المفرش. أهه يا بت. خديه يا ختي وانجرّي على تحت أمال.. ما انا عارفة. بس أوعي تعوّقي.. خلي بالك من السكة.

عيناها تتبعان البنت، ثم تنهض، خفيفة، وتستند بيدها إلى الأرض، ومس الحصيرة الخشنة المشبكة تحت أصابعها يثب إلى راحة الكف ويصطدم بها يدعم وقفتها إذ تستطيل على بنيان قدها الطويل، على عمودي ساقيها العضِلتين ينسدل عليهما، من هيكل جسمها الوثيق الملفوف، ثوبٌ صيفي من «رمش العين» يتخايل تحته قميص فستقي خشن النسيج ولكن محبوك، قصير، إلى سمانتي الفخذين.

وهي ترفع الحَلّة المغطاة، بيد، والموقد المطفأ في اليد الأخرى ما زالت بطنه ساخنة بعد، وعدته السوداء منداة بالجاز اللاذع الرائحة، وتوازنُ بينهما في سهولة جاءت عن مرانة طويلة. عيناها في المحجرين الأسمرين الداكنين تتبعان البنت تتدأدأ في مشيتها وتهتز على عظامها الرقيقة إذ تجري إلى باب الغرفة، ومنها إلى الطرقة، ثم إلى السلم الضيق المعتم المكتوم.

في قلبها موجة خفيفة الاهتزاز من الحنان نحو هذه الحتة الصغيرة من أحشائها. هذه الجزازة الحية منها. وحدها الآن، مستقلة بحياتها الخاصة وإن كانت من كبدها ورحمها. ثم هي صورة غريبة أخرى من أبيها. فُولة وانقسمت فلقتين. الفم الواسع المدرب الحساس، والسنّتان الناتئتان. . .

شفتاها تعرفان ضغط هاتين السنّتين الناتئتين.

وابتسامة ترف حول ركني فمها. شفتاها تتلامسان، كأنما هي تستطعم الدم الذي انبثق منهما مرة، في الليل، قبل أن تولد

ماجدة. الليالي القديمة العاصفة المتقلبة بالهوس الساطع في الظلام، حتى يهمد بهما عباب الأمواج المتراكبة المليئة، ويصلان إلى المرسى.

جاءتها من الباب المفتوح ضجة الجيران في الطرقة، والزعيق، والنداءات، والدعوات على الأولاد مقصوفي الرقبة هو انت مش حتهمد يا واد بقى؟ هو أنت معجون بميّة العفاريت. . إلهي ياخدني ويريحني منك يا محمد يا ابن نفيسة.

وحنفيات مفتوحة وعمود كثيف من الماء ينصب ويصطدم بجدار سطل من الصفيح، وينثال الماء ويتسبسب من على جوانبه، والخيشة تدفع السيل على بلاط الطرقة إلى السلم. هذه نفيسة أم محمد تكد في الكنس والمسح والطبيخ والتسوية والغسيل طول النهار، وسلفتها نجيبة متربعة جنب الراديو أمام الشباك طول النهار تسمع الأغاني المائعة ـ المقروصة في جنبها ـ وتلعب بعقول الشبان في الحارة من وراء ظهر زوجها. عقربة ومستخبية يا خواتي. وبتخرب على الناس من تحت لتحت.

كان يقرض قلبها دائماً شكٌ، لا يستند إلى أدنى أساس، في أن مقصوفة الرقبة تلعب لزوجها أيضاً بالعين والحاجب، ولا تراعي حق الجيرة والعشرة. هو حدس لا قوام له في الحقيقة التي تظهر للعيون، لكنه حدس لم يخنها قط.

وأم محمد تهتف فجأة مرتاعة:

ـ يوه بسم الله الرحمن الرحيم حاسبي يا بت يا ماجدة لتتزحلقي.

وباب السلم يصطفق.

تدوي الخبطة فيرتج لها قلبها، وفي طرف من أطراف هذا القلب المرضوض خشية من أن تستيقظ ماجدة مفزعة من حلاوة نومها في أول الصبح. الرجل يترك لها دنياها، وحدها مع البنت، ويمضي متوتراً بالغضب. والسترة الجلدية الداكنة تلف الظهر الوطيد وتحيط بالكوفية المعلقة حول العنق الركين.. أرض الطرقة تهتز تحت الخطوات القوية بالسخط والشباب والاستهتار. وكل يوم يصبح على هذا الحال، ولا يعود إلا في آخر الليل، عيناه محمرتان، والرائحة نفسها ليلة بعد ليلة، تتشبث بملابسه بل بعضلات صدره وذراعيه أيضاً، وتحت الأبطين وفي خفايا أركان الجسم. رائحة فيها حلاوة خافتة تكاد تنقلب لها المعدة تفوح من الفم بشفتيه الساخرتين المنفرجتين دائماً عن الأسنان الحارة. وإذ يعود في النهاية يقر لها قلبها مع ذلك ويرتاح من خوفه ويضطرب أيضاً بالغيظ والحنق.

ـ هي الفلوس اللي بتروح على المدعوق ده مش فلوس؟ طب أعمل إيه بس لو مسكوه؟ أبقى ساعتها أروح فين وآجي منين يا خواتي؟ يا ختي.. الشر بره وبعيد. والعيّله دي أبقى أعمل بيها إيه؟ يعني آخرتها يسيبها في آرابيزي يبقى يا فرحتي يا هناي...!

تسرب ما ادخرته من أيام الشغل وشقاء الشغل. سحب منها القرشين بخلابة كلامه وسحر أصابعه. وما زال يطلب منها

المزيد. كأنما لا تكفيها وزيادة بالوعة البيت التي لا تشبع، ومصاريف الطفح الأكل التي تقصم الظهر. وهو كل يوم سبت لا يكاد يرمي لها ما يلم أطراف البيت على بعضها البعض. وهاتي هاتي يا بت الكلب.. حتى الصيغة باعها من زمان، وحججه لا تنتهي، وضيّعها على المحروق الذي لا ينتهي ظمأه إليه.

وما زال في ظنه أنها تخبىء عنه بقية، وما زال يداجيها ويناغيها مرة ويعنف بها ويعصف مرة. يطاوعها ويلاينها أو يتنكر لها ويسب الدين والملة، يجهد أن يستقطر منها الصبابة الأخيرة بالمحايلة أو الخطف على السواء. كانت قد أفرغت ما لديها بين يديه منذ أمد طويل، ولكنها تتركه عن عمد يستشف من نبرة صوتها أحياناً، أو من كلمة نافرة كأنها أفلتت عفواً، أنها ما زالت تكتنز شيئاً في حرز حريز، وإن كانت لن تسلمه كنزها. فلو تيقن أنها صفر اليدين حقاً..

هل هي خدعة تلك التي تقيها هي وبنتها، وتحمي بيتها؟ أليس لديها في الحقيقة كنز آخر، وهي تحجبه وتحرس بابه؟

لكن يديه الخشنتين وأصابعه القوية الدقيقة المفاصل تعرف أسرار ما تعالجه في أحشاء السيارات طيلة النهار، تجوس فيها وتجسها وتظل تتحسس جوانبها ومساراتها ومساكنها، وتلائم بين أطرافها وتدق على جدرانها وتلحم المتفرق من شعثها وحديدها، كأنها تعمل لها «عملاً» أو تتلو عليها رقية حتى تهتز

بالحياة وينبثق الطنين في المعدن الموات وينبعث له هرير وهدير دفء منتظم الإيقاع.. يداه لن تطولا كنزه الآخر، يداه مضمومتان عمياوان. والكنز تحت يديه. يداه لا تعرفان باباً إليه.

ـ وهو فيه عينين تشوف غير الزفت اللي بيحرق في قلبه عمال على بطال ليلاتي على الله، آهي وكسة من كل ناحية وخلاص.

لكن ثم جانباً رخياً موطأ الجناح في دخيلة نفسها، فيه رضى وأمن ونعمة. هنالك في ركن منها، صحيح، توق غامض وأمنية خفية، لو خلف الله عليها بولد، وخيبة صغيرة لأن ما جاءت به بطنها بنت مكسورة الجناح. لكنها بنتها وحبيبتها وأغلى من الدنيا عليها. ولسانها مع ذلك يلهج بميلة البخت.. كأنها تصد العين، كأنها تعويذة تقولها بطرف اللسان حتى تداري قوة شريرة تتربص بها بآذان متشوفة تتسمع وترهف السمع، تنتظر لحظة الانقضاض لتخطف ما بقي في يديها.

وأحست ما ينخسها في قلبها، شكة ثاقبة من خوف أسرعت بها إلى الشرفة المزحومة المتراكبة، تتخطى السلال والمواعين والقفف لترشق الحارة بنظرة عجلى ملهوجة.

كانت الصغيرة قد خطفت السلالم المتربة الموحلة بماء الغسيل وتخطت العتبة الحجرية القديمة التي تآكلت ونعمت أطرافها وانغرز جانبها في تراب الحارة.

ودلفت تجري، مستوفزة فرحة بقرشها، كنزها الصغير يدها

تعرق عليه منذ الآن، من الفرحة والتشوف. ونفـذت من جنب لوحة العيش على حافة الرصيف الضيق، وانفلتت من بين قفف العلاف المرصوصة، في عتمة العصر، بأكـوام ملونة من العـدس الأصفر والرز والبرغل والذرة.

وهي تشب الآن أمـام دكـان السجـايـر، تـطاول الـواجهـة الزجاجية المتربة وترفع يدها بالقـرش. تعلقت عيناهـا بالمسرجـة الصغـيرة الموقـدة أبداً بلهب ضئيـل احتـاط عليـه غـلاف علبـة «بلمونت» حمشت النار أطرافه فاسودت، تنبعث له رائحة شيـاط خفيف مستمر.

تسحرها دائماً هذه الشعلة الضيقة المدخنة التي لا تنطفىء ليل نهار.

ـ أيـوه يا شـاطـره سـاكتـة ليـه؟ عـاوزه إيـه يـا ست الحسن والجمال إنتِ؟

كان قد اختطف منها القرش قبل أن تتكلم، فأفزعتهـا فُجَاءَةُ حركته وضراوتُها وخشيتُه أن ترجع عن عزمها.

ـ مصاصة..

ـ عينيَّ حاضر..

وهو يدفع بيديه وسط أكوام الثروات اللامعة في الورق الناعم الملون، والأواني الزجاجية التي تحتشد فيها كل الأشيـاء الحلوة في العالم. وقد تحيرت البنت وتلدد قلبها من الـرغبة في أن تضم إلى صدرها كل هذا، حفنات حفنات. وغشيتها الأزمة التي تعتورها

في كل مرة تأتي إلى باب هذا الكنز ثم تـرتد عنـه وليس في يدهـا إلا نتفة صغيرة من أطرافه لا تتحيف منـه شيئاً كـأنما لم تمسسـه قط ولم تقف ببـابه. سرعـان ما تنجـاب عنها الغـاشية إذ تـرجع إلى الحارة ومعها ما اقتنصته لنفسهـا، فإذا هـو العالم كله، حلو الآن كطعم المصاصة التي يتحلب سكّرهـا في فمها المضمـوم. أبطأت خطواتها أمام دكان العلاّف وظهرها الجاف النحيل يحتك بالقفف اللينة وما فيها من أكوام مطواعة هينة الجوانب. وعيناها تجـولان عـلى راحة وفي مهـل وباستمتـاع بين المشـاهـد الـدسمـة المليئـة حواليها. على مهل، فليس هناك ما يعجلها. شفتاهـا مزمـومتان تحتـاطان بـالجسم المدور الأملس الـذي يشر بالحـلاوة في جوانب فمها، عيناهـا مشدودتـان مزويتـان من المص والمتعة، تلفـان في تؤدة وفي غير توتـر، بين جنبـاتّ عالم لـدن طري، عـلى دكاكـين العجلاتي والزيّات وبيّاع الفول والموقـد المشتعل يفـح في الشارع أمام باب النجّار عليه كوز الغراء تفوح منه رائحة الصمغ الثقيل والتراب وعطر السكّر الرخيص وشوب النار.

ارتفعت عينـاها إلى المئـذنـة الضخمـة الشـاهقـة، والنقـوش البارزة عليها متربة عتيقة ولكن راسخة يتحـدد بها نسيـج السماء الأزرق الصافي الذي خلا من سطوع النهار، وبقيت فيه وضـاءة عميقة، وشرفات المئذنة تعلو متدرجة بـأضلاعهـا الرشيقـة تلوح كأنها مركبة على السماء لا انفصال بينهما.

وهي في الشـارع المـزدحم، مسنـودة إلى الحـائط الحجـري القـديم، وقد نسيت كـل شيء إلا هذه اللذة الهـادئـة الآن بعـد

عنفها الأول تقطر حلاوة بطيئة في فمها، وقدمها الحافية تفحص التراب الهين على صخر الرصيف. ثم دفء نهار انقضى يتسلل من حجر الحائط إلى عظام ظهرها الهشة من وراء الفستان القديم. وعيناها سارحتان متعلقتان بالمئذنة وفي حسها حضور غامض لأبيها، فارعاً طوالاً راسخ القامة عالياً.

بالأمس أعطاها قرشاً اشترت به «كراملة». بالأمس استيقظت في الليل في عالم مضطرب مهتز وأحست كيانه القوي المتين جنبها، بينها وبين أمها على سريرهم الحديدي الوحيد. وفي نوم ليس كاملاً، بحركة كأنها الحلم، ابتعدت عن الحائط والتصقت بالظهر الشاهق ورمت بذراعها الواهية على الهيكل المتمكن في نومته يملأ دنيا حلمها تتردد فيه أنفاس منتظمة. وعادت إلى نوم مريح وقد سكن قلبها تبتسم من الأمان.

رأت من باب الجامع شيوخاً يروحون ويجيئون في الطرقة المبلطة النظيفة يتحركون ببطء كأنهم في النوم أيضاً، رؤوسهم عارية يلبسون قباقيب وجلاليب بيضاء في العتمة الخفيفة، ويأخذون الماء، في كوز مندى، من الزير المدور المركون جنب الباب.. «الله.. أكبر.. الله أكبر» المئذنة ينزل منها صوت بعيد يشدو بدعاء طويل كأنما لا أمل فيه وفيه نشوة بالشكاة وراحة إليها ومعرفة خفية.. وزحمة المغرب في الشارع الضيق، أخذت تلمع فيها أنوار مضطربة وضجيج مختلط من صلصلة أجراس العجلات وغناء البياعين وصيحات بائعي الزبادي البيتي وتنغيات الشحاذ وهو يقطع الشارع من وسطه كأنما الدنيا كلها

ملك يـديه، وفي يـده ولد يـردد بنغمة رفيعـة ملحنة «عليـك يـا رب. . عشـانـا عليـك يـا رب. . الأجـر والثـواب عنـد الله يـا محسنين».

والضجيـج البعيـد المضـطرب يجعـل الغـرفـة الضيقـة تمـوج بالخوف والوحشة، حيطانها تتباعد وتنفتح بينهـا مسافـات لا آخر لهـا. صيحات أبيهـا الغـاضبـة تـأتيهـا من آخـر الحلم، ودعـاء الشحاذ وترديد الولد «عند الله يـا محسنين». نحن في المغـرب أو في الفجر؟ نداء لا ينتهي يجيء من وراء خصاص الشباك «يا. . غورت. . الله أكبر. . يا. . . يا محسنـين. . أكبر» فتـدفن رأسها في المخدة وتحس السرير يرتعش ويصطك تحتها وتغمض عينيها، تزيد من إغـماض عينيها عن عمـد، بشدة، كـأنما بـذلك تحجـز نفسها عن السمع. وأمها تحبس البكاء في ركن بعيـد من الأبعاد التي لا آخر لها. وهي تغوص في الليل المليء بالـظلال والأصداء المتحركة القلقة.

وتفتـح عينيهـا في العتمـة، عـلى اهـتزاز السريـر، ويتجمــد جسمهـا على الفـور ويتوتـر. إنها ميتة. وتسمـع في الـظلام وفي موتها وشوشة وهمساً حاراً وأصواتاً فيهـا لذة كـأن أحداً يستقـطر بين شفتيه حلاوة مصاصة. هي ميتة، ميتة. وتضغط على عينيها حتى لا تنفتحا، فإن الميتين يكونون مغمضي العيون لا يتحـركون أبداً متخشبين. وخشب السرير يهتز على أمواج رتيبة. وفي موتهـا المضـطرب المغلق العينين تسمـع شكوى طـويلة «الله ـ أكبر. . . الله. . أكبر». هل يجدونها في الصبح ميتـة؟ وتولـول أمها وتـدق

خـدودها وتمـلأ الدنيـا بالصريـخ؟ سيجدونها ميتـة في الصبـاح. والشيـوخ البيض الجلاليب سيصبـون الماء الـدافىء من الزيـر على جسمها العاري، بالكوز. ماء ساخناً على جسمها العاري الممدد على البلاط في طـرقة الجـامع، والهـواء تحسه بـارداً على جلدهـا المكشوف، يهب عليها من الباب.

ـ مادا.. بت يا مادا.. مصاصة أنا تمان.. عاوز مصاصة.

التفتت إلى الشيء الصغـير الذي يتـوثب جنبها ويشـد يـدهـا المرفوعة إلى فمها بالمصاصة. وعلى وجهـه الملطخ بالـتراب خيوط نظيفة من دموع ما زالت تتقطر من غير صوت.

ـ يوه ما لك يا ولد يا محمد؟

ـ ندية، خالتي ندية ضربتني..

يحكي عن حدث مضى، بسبيله إلى الاختفاء منذ الآن.

تأملته في غير عطف، دون قرابة.

دائماً تضربه نجيـة زوجة خـاله وتـطرده لأنه يلعب في الـراديو وينحشر في الشباك، ويعطّل عليها. وتنقلب الدنيا بينها وبين أمه نفيسة، وتثور عركة ترتفع لـرب السماء. لكن الـدموع تتسلسـل من عينيه دون بكاء وما زال يشهق بانتظام.

ألقت ماجدة بذراعها على كتفه الصغيرة الواطئـة تحس نفسها قـوية عـالية. وتحسـه يحتمي بها، عـظامـه الـرقيقـة في الجلبـاب الفضفاض تهتز ما زالت من شهيق البكاء، يستند إليها كـأنه من خرق طرية لا تعرف الرفض.

وهو يتطلع إلى ما في يديها من حلاوة تعوضه عن غضبة العالم وضجيجه.

وانفتح في نفسها عمود مندفع من ماء الحنان يفيض على الوجه الذي يرتفع إليها وضيئاً بالثقة.

فأعطته المصاصة منداة بعد من ريقها كما تعطيه جزءاً من نفسها.

وتململ الولد تحت ذراعيها وتفلّت منها واستدار عنها قليلاً، وقد استغرقه مص الحلوى التي كادت تنبري وتنسل من خشبتها الرفيعة. شفتاه لهما حياتهما الخاصة ولغتهما الخاصة من التلمظ والتذوق الجشع مزمومتين رقيقتين متحركتين. شفتين مدربتين حديث عهدهما بالثدي الذي ينز بأمل قليل وعذوبة عصية على الإستنباط. ولاح لها أن وراء هاتين الشفتين ثمّ سنتين ناتئتين تضغطان من الداخل على جانب اللحم الحي الذي يستقطر السكّر ويرتعش باللذة.

ـ يا ما.. جدة.. يا بتّ يا ماجدة يا بتّ.. هي البنت اتخسفت فين يا خواتي؟ هو أنت اتربطتِ خلاص يابتّ أنتِ في الحارة؟ يا بتّ يا ما.. جدة.

وجه أمها مطلّ عليها من الشرفة الضيقة الملتصقة بالحائط، مدورتها محبوكة على رأسها، اللهفة والخوف يتنازعان قسمات الوجه الأسمر المضيء في قتامة المغرب، خزيانة من وجهها المكشوف في الحارة وصوتها على ذلك يتمدد ملء المغرب بدفء

أنثوي كثيف لا تمتلىء به إلا أصوات الأمهات الشبعانة بالأمومة.

ثم إذا هي فجأة وحيدة.

الحائط الذي كانت تستند إليه بعيد عنها، وما حولها فراغ.

وأدركت دفعة واحدة، أحست لحظة واحدة قبل أن ترى بعينيها، أن الولد قد ذهب، أنه تسلل من جانبها، أن ذراعها لم تعد ترتكز على هيكله المشدود، أنه لم يعد محتاجاً إليها. إن أحداً لم يعد محتاجاً إليها.

ثم التقطته عيناها، دون بحث، كأنما كانتا تعرفان لوحدهما الاتجاه الذي انسل فيه الولد دون أن تر‌ياه يجري بخطواته القصيرة المتلاحقة وسط الحارة بين زحمة الناس المتدافعين، وجلبابه الأبيض الطويل تتعثر فيه قدماه الحافيتان المتداخلتان وهو يتخايل مبتعداً بين العتمة والأنوار.

تحجرت رجلاها في وقفتها، لم يخطر لها أن تجري وراءه.. وباستطاعتها أن تلحقه في لحظات. كأنما أنستها الخيانة مقدرتها على الحركة وأحالتها عموداً من الملح.

ولأول مرة أحست يدها صفراً خاوية وفي صدرها فراغ هابط الغور ليس له قاع. كأن الرضة التي صدمت قلبها شلته أيضاً. وقد جف ريقها، وفي فمها طعم الخشب. الضجيج حولها يبتعد بسرعة ويهبط إلى طنين يأتي خلال طبقات مسدودة ثقيلة من تحت الأرض. وبيوت الشارع تسقط مرة واحدة والمئذنة العالية تميل إلى الوراء مع كتلة حائط الجامع كله، الجدران والدكاكين

والأبواب الصامتة تفترق وتهرب منها. وحدها، هي وحدها. عيناها جافتان مشدودتان إلى النقطة البيضاء التي تجري هاربة منها في الزحمة تحمل شيئاً لا عوض عنه.

وأمها مائلة إلى حاجز الشرفة، قلبها مشدود من هذه الصدمة الصغيرة المضحكة التي أصابت البنت. خطف الولد منها مصاصتها وجرى. مضحكة هذه الحكاية. لكنها تعرف أن هذه القطعة الصغيرة من نفسها، واقفة هناك بجمود في الشارع، إنما ترتعش الآن بما ينبض به قلب واحد ممدود داخل الأجيال جميعاً وعبر الناس جميعاً أطرافه مشدودة حتى آخر فتائلها، مغروز على مسامير، مفتوح في الهواء، ترتعد شرايينه العارية الرقيقة بالدم السخن تخبطه صدمات لا تنتهي، ويظل يرجف حياً.

وهي تستند بكوعها إلى الحاجز الخشبي، والشباك إلى جوارها فيه تلك المرأة جنب الراديو الذي ينصب منه غناء طويل رخيص البكاء.

نسيت خجلها وأنه عيب أن تظل مكشوفة الوجه في الحارة، واعتمدت خدها بيدها وعيناها هي أيضاً معلقتان بالولد الصغير الذي هرب منها، أخذ المذاق الحلو من فمها وجرى. كان قد تسلل يستشرف النظر إليها ويشد يدها. وابتذلت له قلبها واحتاطت عليه بذراعيها وحضنها ترعى ناراً صغيرة تشتعل في عينيه الضيقتين، تحترق بها أطراف نفسها. وعطيتها له متعة لها مع ذلك وسعادة. لكنها الآن يتدافع بها الناس في الزحمة.

يـداها لن تنضـما عليه قط. ذراعـاها لن تلتحـما أبـداً حـول أركان جذعـه العضِل الشـامخ. بـل تقصران عنه وتسقـطان إلى جنبها. رجولته وعقوقه واستغناؤه تهزم امتدادها إليه.

وهي تنهدّ وتسقط في الداخـل. صلابـة الأرض تتلقاهـا وقد غـاضت من جسمها كـل عصارة. الحصـيرة تـرتفـع إلى لحمهـا فتصده بخشونتها وتوقف انهياره بثباتها الذي لا يـرتج. والـظلمة في الحجـرة الخاويـة تنبثق فيها ظـلال قـويـة من أعمـدة السريـر الحـديـدي في أركـانها الشـاهقـة تسـد السقف الـذي يتصـاعـد ويبتعـد، إلى أعلى في الـظلام، وما زال يبتعـد، في سـماء قـاتمـة تـرتفع بسرعـة، وحـواليهـا أثـاث حيـاتهـا الـرث، وآنيـة حبهـا وحبـوطها مـائلة على جنبهـا مثنية الأطـراف. تحتاج إليـه. تحتاج إليه. هي تحتاج إليه.

لكن البنت الصغـيرة لا تحتاج إلى أحـد ولا إلى شيء. وجهها الصبيـاني فيه كـبرياؤه. وهي واقفـة في الشارع، بعيـدة. سـوف تعود لأمها بعد قليل وسوف تجد عروستها. وأبوها سوف يرجـع آخر الليل، ويعطيها في الصباح قرشاً، وعملة صغيرة أخرى من الحب، لكنها ليست بحاجة إلى شيء. وهي عندما تنظر إلى آخر الشارع ليس في وجهها نضوج، ليست فيه خبرة وليست فيه حتى نعمة النضارة ونعومة الطفولة. ولكنه ليس متوتراً بل فيه فـراغ، شـاحب قليلاً أبيض في العتمـة، تحت شعـرهـا الأسـود الكثيف المسرّح. وجه أمسح، خاو، جامد ليس فيه دموع.

آخر السكة

حِسّ الرمل تحت قدميه، هش، طري، به بلل من المطر الذي ظل يسح هيناً طوال بعد الظهر. وإلى جانبه يرتفع سد من الأحجار البيضاء الضخمة، تلوح رمادية مفتتة السطح، من ورائها أغصان أثيثة داكنة. وقطرات ثقيلة من الماء تسقط، من الشجر المتكاثف المشبع بالرطوبة، على الحجر، وعلى رمل الطريق الضيقة، لها وزن أصم يتبدد بصمت، في عتمة المساء، لا يخفف منه هواء البحر الذي يكتسح البيوت في هبات مفاجئة، به طعم الملح. وهو يرفع ياقة معطفه الجبردين على مؤخرة عنقه، يحس تحت شعره دسامة العرق القديم وندى البلولة الجديد، يحتمي من هجمة الهواء، وسقطات القطرات المشبعة من على الأوراق المعتمة الخضرة.

والطريق تنحدر بسرعة. وتنفجر خبطة مصراع نافذة على حائط، في السكون، بفرقعة. فيرفع عينيه إلى أنوار خافتة تتخايل وراء الزجاج المغبش في النوافذ الصغيرة العالية وتكشف عن متاع الحياة اليومية الرث في الغرف المكظوظة الموحشة بمقدم الليل. داير السرير الدانتلا الأبيض الكابي، على قضبان حديدية

سوداء رقيقة معوجة، صور باهتة من مجلات، مثبتة على بياض الحيطان، مصباح عريان عشرين شمعة مدلى من السقف بسلك رفيع ساقط باستسلام، دواليب مائلة مثقلة بالحقائب والكراكيب.

وحركة جسمه المنحني إلى الإمام تتزايد قوة واندفاعاً بانحدار الطريق إلى سلالم المحطة، وكأنما استراح من مضضه باقتراب أنوار كوخ المحطة الخشبي، يحيط به أفريزه المشبك على نسق أرابيسك مبسط، يشع النور من خرومه الهندسية. وهو يراه من فوق. والقرميد الطوبي اللون يلمع من البلل وتتعلق بأطرافه دانتلا أخرى ثقيلة من قطرات ماء تتشبث بحافته لا تريد السقوط، بعناد واهن ولكن لا ينهزم.

وهو ينحدر على السلالم العريضة، المغطاة بالرمل، إلى رصيف المحطة، أخيراً. والقهوة القريبة على الرصيف مغلقة الزجاج، دافئة من الداخل، كثيفة ببخار الأنفاس والدخان. وخطوط الترام تمتد سوداء، متألقة بقوة خاصة فيها، بطاقة كامنة نائمة ولكن متحفزة، تنتظر العجلات المدوية المفرقعة لتنبثق منها دفعات الانطلاق إلى عالم آخر جياش، مزدحم، مفتوح ومنير.

تأخر الترام.

وليس على الرصيف أحد غيره في هذه المحطة التي تشتعل أنوارها له وحده، وقد أوى إلى الركن الخشبي الذي تفوح منه رائحة عطن قديم ابتعثته الرطوبة وهواء الليل. وجفاف

الـرصيف الصلب تحت سقف المحطة يـرضي حس قـدميـه تحت جلد الحـذاء المبلل. وليس في الجو بـرودة، بل شتـويـة أكتـوبـر ونعومة سماء المساء المبكـر، العذري، مـا زال منيراً بـوهج محمـرّ توشيه دكنة السحب الجهمة المقطعة التي يجري بها الهـواء سريعاً صامتاً في مدار آخر. ونجمة وحيدة مشعـة تجري مـع السحب، تبدو وتختفي، تنسرب في بهجة حميمة مغلق عليها.

وأخيراً جاءت القرقعة البعيدة التي تؤذن بمقدم الترام، يقترب بسرعة مليئاً بشحنة مكتومة، والنور البنفسجي الكابي في مقدمته يتـألق ويكبر، والكتلة العلويـة الضخمة فـوقه كـأنها آتيـة قبله، مطلة من فوق، مسدودة، تنذر بتهـديد غـير مبرر، والأنـوار من نوافذه تتحرك على جانبيه بسرعة على رمل السكة، وتتعاقب على جانبي الطريق المتحدرين تحت حيطان البيوت وأشجارها.

واقترب الترام، بضجيجـه ونوره، في أول المسـاء، بما يحمـل من وعد متفجر. لكنه لم يتحرك، كأن إرادة أخرى تفـرض عليه وقفته الجامدة في المحطة. وغض الترام من اندفاعه، وعـبرت به قامة السائق وهو يدير عجلتـه فيوقف القـرقعة ويحيلهـا إلى دقات معدنية تصلصـل وتتتابـع في بطء، ثم إلى هديـر أخير، ونشيش يهبط إلى زفـير نهائي مـرتـاح، وينفثىء إلى صـدمــة الانقـطاع، والتـوقف الكامـل، وسكتة لحـظة الصمت. والهدوء تنبعث فيـه فجأة أصداء القهوة وحفيف ورق الشجر في السكون الفسيح.

ومن السلالم إلى الرصيف، نـازلة بسرعـة، تندفـع. رشيقة،

خفيفة، إلى سلم الترام تتعلق به لترقاه بخفة. والهواء يطير بجانب سترة البلوفر الملقاة على الكتف المدورة الرخصة المليئة، ويدها، بحقيبتها الصغيرة، تمسك بالجانب الآخر من البلوفر تضمه إلى ما تحت صدرها. ونور الترام يشعل شعرها السبط البني المتوهج المتناثرة منه خصلةٌ طائرة على جانب الوجه الأبيض الغامض المعالم.

نعمات، جاءت في اللحظة الأخيرة.

وانفك على الفور توتر مقبض كان يثقل دماءه، ووجد نفسه، دون أن يدري، على سلم الترام، معلقاً بالحاجز الخشبي الأملس الزلق، قدمه على الحديد الأسود اللامع، وقدمه الأخرى فوق، على خشب الترام، يكاد يحيط بها بذراعه، قريباً منه نفحُ ملابسِها وجسمها. هذا العبق الحميم الخاص الذي لا يكاد يتميز فيه رائحة ما، ولكنه هناك، فيه نفس ودفء يعرفه معرفة وثيقة مباشرة، يتغلغل فيه، كأنما هو ينتظره في كل مسامه الداخلية البعيدة.

ويمد يده فيفتح لها باب الترام الزجاجي، وتدخل بحركة تلقائية دون أن تستدير إليه، وما زالت تنهج من سرعة اندفاعها لتلحق بالترام، ولكن شيئاً ما يدفعها إلى النظر وراءها: يده الممدودة على الباب، توتر حسه بها، البهجة العارمة المكتومة تضج بها دماؤه داخل أسوار الجسم، ترحيبه الصامت باللقيا بعد جمود الانتظار، شيء ما دفعها للالتفات بسرعة. صدمة المفاجأة، وانفتاح التعرف، وبهجة الانتصار السريع باللحاق بما كانت

تجري وراءه، والعثور عليه في وقت معاً، والامتنان للمجاملة إذ ينفتح لها الباب. لعل ذلك كله، وغيره، قد نزع قناع الوحدة عن وجهها اليانع الحلو، وأزاح صلابة الصمت والانعزال، فتنهمر ملامحها كلها في ابتسامة المفاجأة والفرح، وتستضيء، وتسطع بإشراق جديد، كأنها وجه جديد:

ـ الله. . شوقي. . أنت هنا؟ كنت فاكرة نفسي متأخرة.

ـ طيب نقول مساء الخير. . السلام عليكم. . بونسوار أولاً. . !

ضحكتها المرحة، فيها ألفة قديمة، خافتة وغضة وأنثوية، وفيها لمسة من شقاوة ومعابثة:

ـ مساء الخير يا سيدي. السّلام عليكم. . بونسوار أولاً. . أمرك.

بهمس، حتى لا يسمعها الركاب الآخرون الذين يثبتون عليهما نظراتهم المستطلعة، الجهمة، كأن فيها منذ الآن تقريعاً وتأنيباً وإدانة، وهما يشقان طريقهما، وهو يصطدم، مع تأرجح الترام، بالقوائم الحديدية اللامعة في الممر الضيق، حتى يصلا إلى الجلد البني الداكن، تحت زجاج نافذة ما زالت تهمي عليه قطرات متسايلة صافية، من الخارج.

وجلس إلى جانبها، في حرج طفيف من الاستقرار والاستعداد للرحلة القصيرة، تحت أنظار الناس. والكمساري يتجه إليهما، كأنهما هدف، وعليهما ـ عليه هو على الأخص ـ أن

يتخلص من أسار هذا القصد، هذه النية التي تحيط بهما. فيدفع للكمساري الثمن، وتخرج هي بطاقة اشتراكها بصمت من حقيبتها، ويقف الترام، وتنطلق الصفارة، وتقرقع العجلات، وينطلق الحديد والكهرباء في زفيف على خط الرمل الطويل، في غبشة المساء المتزايدة، ولا يركب أحد، فتنفرج دائرة الحرج والضيق، ويخف ضغطها. ويحتدم حسه، مع هزات الترام الرتيبة ووقفاته واندفاعاته المتلاحقة، بوجودها إلى جانبه، قريبة جداً. جانب معطفه يمس ساقها المسحوبة الرشيقة، وهو دفآن في حسه بها، على الجلد القديم الوثير، ذراعه المتوترة في كنّ جاكتتها الملقاة على كتفها ناعمة الصوف نعومة جزءٍ من جسمها، وصدرها يثقل البلوفر الخفيف الطري بلدونة خصبة لا يكاد يتضح معها الحز الداخلي المستدير، وهي تهز رأسها وتفتح حقيبتها لتمرر المشط بسرعة وخفة في شعرها الأثيث وتلتفت إليه بنظرة مسترقة مخطوفة كأنما تدعوه أن يتكلم.

ولا كلام عنده، في زحمة الضجيج الذي يمور بداخله بلا لغة.

عيناها، عيناها الغريبتان، نافذتان على عالم أجنبي، بلونهما الأصفر الصافي، مترقرقتان، واسعتان، قطرتان من ماء أجاج على زجاج لامع، والخط الأسود الرقيق على الحافتين، والظل الأسود الخفيف على الجفنين. ماذا تقول العينان؟

ـ عندك الليلة شغل كتير؟

تريدهُ أن يتكلم، لكنها لاتقول شيئاً.

- أبداً، تلات أربع ورقات تحاليل، أخلص منها وأروح للمحامي، بعد إذن سيادة الدكتور.

- لكن سيادة الدكتور مش جاي الليلة، أو يمكن ييجي متأخر.

- بركه يا جامع. أهرب نص ساعة وأرجع. ولا من شاف ولا من دري. أنت سمعت حاجة؟ عرفت حاجة؟

- بس بقى.. مش حتبطل تزويغ.

هل هي تعرف شيئاً؟ هل سمعت أحاديثهما في التليفون؟ وهل سمعت أحاديث الناس ولغطهم؟ بلا شك. نعم، إنه لم يقل لها شيئاً صراحة. وهو قد خلع الخاتم من زمان. منذ أن انجابت نشوات الأيام الأولى، واضطراباتها، ودفقات جنونها، وهي تعرف أنه يعيش وحده مع أمه وأخواته، بل تعرف أيضاً بيتهم من بعيد. لكنها تمسك أيضاً بيدها كل الخيوط، ولا شك أنها عرفت قصة زواجه ونزاعه وانفصاله، وهي على التليفون تستطيع إذا أرادت أن تسمعه يطلب المحامي ويناقشه، ويتفق مع الوكيل على المواعيد والإجراءات، وتستطيع أن تستخلص لنفسها الحكاية كلها. ومرة واحدة سمعتها مباشرة عندما طلبته من الخارج - على أنه قد حذرها الاتصال به على أي نحو - وصوتها الأنثوي الخشن العنيف. وعاكسته يومها، في معاتبة تبدو بريئة كل البراءة، لكنه لا يعرف إن كانت محملة بالتضمينات

والتلميحات، حولت إليه الخط، وبعد أن أنهى مكالمته الصاخبة:

ـ الله الله يا سي شوقي، مكالمات خصوصية في الشغل؟

هل استرقت السمع يومها، من على مكتبها من وراء الحاجز الزجاجي؟ كانت العيادة مزدحمة بأصحاب التحاليل، غائصين على مقاعدهم العتيقة المشققة الجلد في المدخل المعتم المترب المرتفع السقف. وبعد انتهاء المكالمة خرج وفي يده ورقة متعللاً بأنه يبحث عن التمرجي ليعطيها له، كأنما هي ورقة مهمة بنوع خاص. وكان الدكتور في المعمل أمام أنابيبه العكرة ومواقده التي تئز بنار محددة كاشفة، وقواريره المليئة بالسوائل الكثيفة والصافية. ونظرت إليه من وراء الزجاج، وهي ترد على التليفون، نظرة غائبة، ورفعت الخط وأوصلت الفيشة بحركتها التقليدية الكفء السريعة، حركة بنت تعرف شغلها وتجيده وتنفذه بفعالية تامة ولو كانت مغمضة العينين، ليست هناك. ولكن هذه النظرة البعيدة، ونور الصبح ينعكس من النافذة الجانبية على العينين الصافيتين، الخاويتين، في هذا الاتساع الأصفر الموحش الذي لا يطرف.. هل سمعت؟ التوسلات، والتهديدات، والدموع، والاستنجاد بالذكريات، وابتعاثات حنان ضائع، والتعلات، وبكاء ندم لا يعرف ولن يستطيع أبداً أن يعرف إن كان حقيقياً أم مرتجلاً من وحي اللحظة ـ فهو حار وموجع ولكنه أيضاً قُلَّب وخِتل، هذا يعرفه.. وعليه أن يسد قلبه أمامه، وإلا فلا نجاة. وألجأته في النهاية أن يقفل السكة،

بعنف، واحتدام مكتوم. فهل سمعت الحكاية كلها؟ حكاية توجع القلب. ولكنه سيخلص منها قريباً. وأحس آهة الكمد بعد أن أفلتت منه. لا بأس، المحكمة سوف تحدد لها النفقة، وينتهي، ينتهي. وقد أعطاها كل شيء، أثاثها الذي اشتراه هو بسهر الليالي وألم الكتفين وانكسار الظهر وزيغ العينين من الدق على الآلة حتى الصبح، شهراً بعد شهر، بلا نهاية. و «ورقة الضد» على نفسه حتى تأمن على نفسها، وصورها أيضاً وخطاباتها الساذجة من أيام الغزل الأولى القديمة الغارقة في القدم، كل شيء، فساتينها وملابسها وقمصان نومها. قشور النايلون الملونة التي طالما أماطها عن ثمراتٍ دبّ إليها العطب فلم يعد فيها إلا لحم مهدل نضبت عنه سلافة المحبة والتواصل. كل شيء أخذته معها، وأخذت معها جذاذة ضخمة مزعتها أيضاً من حُرّ نفسه ومن أطيب أجزاء عمره. أتندمل قط هذه الفجورة الغائرة في لحمه ويرمّ الجرح الذي نغل وضرب؟ أيجف أبداً قطْر المرارة والصديد والدم المتخثر بالعراك والمشاحنات؟ وما الجدوى الآن؟ سممت أيامه، وطينت بالوحل عيشته، نعم، وعليه الآن أن يظل يدفع الثمن، ثمن شهوته وشفقته، وجنونه وتمرده، ومتعته المعجونة بالجسد الملوث الوثير. وقد دفع، دفع، فهل يخلص أبداً؟

ـ إيه ده كله؟ اللي واخد عقلك يتهنى به. . وصلت لحد فين؟

لن يعرف أبداً ماذا تقصد بهذه الكلمات، وما يشبهها. دائماً تنكشه، وتخِزه، بلهجتها التي تبدو مجردة مستقيمة عارية من كل

كثافة ولكنها تحمل ثقلاً. لن يعرف أبداً ما رسالة هذه النظرات، هذه الضمة للشفتين الرقيقتين الرفيعتين تغلقهما على كلمة لم تتخلق بعد، أو لا تريدها أن تتخلق، لا تريدها أن تتخذ لنفسها صوتاً يعطيها القالب والنهائية فيستطيع أن يواجهها، أن يتعامل معها، أن يمسك بها، ولكن أهذه الكلمة هناك؟ أم هي وهم في ظنه وحده.

وفي سؤالها نبرة حنو لا يمكن أن يكون متوهّماً، جرْس طيب أموي يبره وينحني عليه مهما كان فيه من دعابة ومعابثة. واصطدمت يدها إلى جانبه بيده. بعفوية؟ صدفة؟ لا يعرف. لا يعرف. لكنه يحس هذه اللمسة التي طالت قليلاً ـ لحظة واحدة أكثر مما قد يكون عادياً وتلقائياً وعفوياً ـ لمسة يدها بيده من على «الجيب» الصوفي الثقيل الوبرة، من على الاستدارة المليئة. هل فيها ضغطة خفيفة مقصودة مرت كاللمحة، واختفت؟ أم ليس فيها شيء؟ ما معنى هذه الاصطدامات العذبة التي ما تفتأ تتكرر؟ هذه اللمسات التي تجيء ـ دائماً ـ كأنما عن غير قصد؟ مس الأصابع الرقيقة المرهفة العظم، في زحمة النهار، والعمل، والمواصلات. مرة عندما يعطيها ورقة تحليل، كأنه يهبها شيئاً ثميناً وكأنها تتلقى الهبة. وعند صعود السلالم، صدمة اليد باليد على ثنية البطن الطرية، خطفة زمن هاربة، على مشارف عالم مليء بوعود نشوة مصفاة. وحس النهد الطيع على ذراعه عند المرور في طرقة ضيقة، لمسة لا تكاد تحسّ لكنها خصيبة، ووثيرة. عابرة ولكن كأنها لا تحدث في الزمن، ونظرة معها فيها دهشة

وسؤال ورضى وعمق لا يسبر غوره. . ما الكلمة التي لا تريد أن تنطلق؟ ما الرسالة التي لا ينفك رمزها؟ أهناك كلمة ورسالة؟ نعم، نعم، كلمة مركبة، ومعقدة. أين المعمل الذي يحللها فيه، وأنبوبة الاختبار الدقيقة المستطيلة التي تستدير ببطء على لهب «بنسون» يلعق زجاجها ويرسب أملاحها ومعادنها من تحت المياه الصافية الخادعة؟

والترام يمضي في عشوة الليل الزاحف، مندفعاً بزفيفه وجلجلته، بقوته الخاصة المتفجرة، مغلقاً على نفسه، يشق طريقه على القضبان الحديدية القابضة، مشحوناً بطاقة عنيدة عمياء، يخترق السواد المجهول الحالك. والأنوار من نوافذه الجانبية تجري معه ترتفع وتنخفض وتستدير، تلاحقه وتنتصب فجأة على جدران الرمل المتصلب القائم على الجانبين، في أكمات قريبة مهددة، مشققة بخدود أفقية متعرجة خطتها مياه الأمطار وسفعات الريح عبر أزمان سحيقة، وتنبثق من الرمال بحبوبها وكراتها وخطوطها، حرشات صغيرة خضراء خشنة تسطع في النور بلون وحشي وتختفي بأوراقها الكثة الداكنة. وتنهار سدود الرمل وتتراجع من على السكة لينفسح الليل عن براح مفتوح معتم، البحر بحضوره الغامض على مقربة، أنفاسه الرطبة بملوحتها المبلولة تهب على صهاريج البترول: ضخمة، مستديرة تلمع بألق معدني باهت البياض، جاثمة تحت سماء قاتمة، أثداء هائلة راسخة على ضلوع الأرض، كاملة الاستدارة، صلبة، تختزن العصارة المعدنية التي تغتذي منها المدينة وتدر لبنها الحريف

الرقراق في الشرايين الظمأى إلى الطاقة والقوة العمياء، ينطلق منها ألف حريق صغير مجنون محصور، كل لحسابه وفي طريقه المرسوم، على مسارات التوفز والتوقف والانطلاق، كل في حدوده، ترقبه عيون ساطعة حمراء وصفراء وخضراء، تشق جسد الليل بألف جرح محسوب، متفجرة كلها بالصراخ في ظلمة المدينة، شرارات تتوهج وتنطفىء، تتناثر منبثقة من مسام الجسد. ومياه ذهنه ثقيلة برواسب مرة الطعم، ملحية يمجها اللسان. لماذا الترام يختط هذا الطريق؟ أهذه شوتس.. المكس.. العصافرة.. العامرية.. القباري؟ هذه بلدته، هذه الإسكندرية، وخطوطها مرسومة على قلبه.. لكنه الآن لا يعرف أين هو منها.. ورائحة المدابغ الثقيلة الهاجعة تسطع، ثاقبة تنفذ إليه من شباك مفتوح، جفاف صحراوي محمل بعبء نتن لا يطاق. سحابة ليلية تهب به من نفاية إفرازات الحياة، الجلود المشبوحة العفنة تنسلخ من حياة إلى حياة، عبر محنة الموت والمجزرة، وخباثة الذفر، مزقاً دقيقة ماكرة الصنعة منمنمة ملساء تحيط بالأقدام الصغيرة النضرة، وتودع فيها الأسرار الصغيرة الأثيرة، ومفاتيح العلاقات بين أيادي الناس، والرموز المخططة الصامتة بكل لغة، جلود الحياة المتفجرة الخشنة القديمة تغدو جلوداً أخرى مصقولة ملفوفة حول حَيَواتٍ أخرى مكتومة تجري في مساراتها.

ـ أبداً.. ما وصلتش ولا حاجة.. كنت سرحان شويه كده.. تعرفي امبارح ما نمتش لغاية الساعة أربعة الصبح.

ـ يا خبر. . ليه؟ خير؟ كنت عيان والا إيه؟

ثم استدركت، ولمعت عيناها بنورهما الأصفر:

ـ واللاالعيار تقل عليك؟ كنت في سهرة لازم. .

في لوم واتهام.

واحتدمت ثورة صغيرة محبطة في داخله، وحلف لها، وصدق هو نفسه حلفانه، ومر القسم والتصديق مرور غاشية تعكر ثقل صفو ما، صفو رازح الركود لكنه مستقر. وجدت في غرفتي كتاباً قديماً بلا غلاف، من مهملات البيت، في ركن الدولاب. كله حكايات غريبة، تلك التي يسمونها خرافات. حروب قديمة من أيام الرومان أو اليونان أو مثل هؤلاء الناس، من أيام الإسكندر والفرس، وأسماء أخرى لا أذكرها الآن. . عن عاشق ينظر إلى الماء ويتحول إلى زهرة نرجس. عن بنت تصبح شجرة. . والله ما كنت نائماً، لكني لم أكن مستيقظاً أيضاً. لم أكن أحلم، ولكن لم أكن أستطيع حراكاً، مهيض العزم، متجمداً، حالة عجيبة، لا، لا، لم أكن قد شربت شيئاً والله العظيم. صحيح. كانت هناك واحدة، كالغولة في الحواديت التي كنا نسمعها ونحن أطفال. تنظر إلى الناس، والحيوانات، فتصبح كلها، من نظراتها، حجراً. . والأشجار، وكل شيء، أحجار جامدة. كل ما تنظر إليه. لا يستطيع حراكاً. والعرق يتفصد مني، حتى النفس ما عدت أحس به، ولكنني كنت مفتح العينين، وكان في الغرفة نور، لم أكن أحلم، لكني لم أكن

أتحـرك، ولا أريد أن أتحـرك. . يـاه. . لم يكن الليـل يـريـد أن ينجـاب. . أبداً ـ يـا شيخ، لا بـد أنك كنت تحلم ـ أبـداً، أنـا متأكد. . هل كنت أحلم؟ أبداً. . هل هناك ما يحول بيني وبـين الحلم؟ الشيء الوحيد الذي لا رقابة لأحد عليه، لا أحد يتحكم فيه، لا شأن لأحد به. كنت أنت يا نعمات ليلتها أمامي، راكعة عـلى الأرض، ينسدل عليـك قميص نوم أبيض نـاعم النسيج، قميص سابغ ينزل من على كتفيك بانفساح، إلى الأرض، يخفي وراءه جســدك كله، حتى ذراعيـك يحيط بهـما كم لصيق، حتى الرسغين، وكـان ثمّ صوت تـدفق للمياه، تهضب وتتسلســل في خـرير مستمـر تحت الأرض، كأنـه في غرفـة سفليـة، في الـدور الأرضي من البيت. حنفيـة مفتـوحـة منصبـة في مجـرى مـا، في الغرفة، كما ينصب ماء المطر على جوانب الشارع، ولكن الشارع هنا يجري في الـدور الأرضي من البيت، بين الحيـطان، في الليل، لا يهتم بـه أحـد. ورفعت إليّ وجهـك يـا نعـمات، في العتمـة، مشرقاً، أبيض. وقبلتك. شفتـك العلوية الـرقيقة انفتحت تحت فمي، والشفـة التحتية المكتنـزة، داكنة الحمـرة، في ضمة ريـانة ناعمة الملمس، ويدي حول عنقك الباتعة، المدورة تحت الشعـر الهش الأثيث، زهــرة رائعــة منبثقــة من الأرض. وأنــا أمص الرحيق، بشفة مكهربة، كـل الرقـة وكل المحبـة. كل العـزاء، وتيقـظت أرتجف. . وفي قلبي رقعـة فسيحـة من رضى شـامـل، مـرتاح، مـا أن استيقـظت حتى أخـذ يتحيف من أطـرافهـا قلق متـوفز، لاسـع الأسنان. كـأنني اجترحت إثمـاً ما، لا أفهمـه.

نعم، هذا هو الحلم. لكن قلبي دبّاه وداراه وتحوّط عليه، كأنه لقيا يطمع فيها كل قلب. ماذا بقي منه الآن؟ خيط واه رفيع يتموج في قلب مياه ضحلة، لا لون فيها ولا كثافة. لكني بالأمس، لا، لم أكن أحلم والله، أبداً، كنت مفتح العينين، في الصبح وجدت نور الغرفة مضاء.. الله.. أما كلام فارغ صحيح. أنا عارف ما هذه الكتب؟ بلا غلاف، ولا عنوان حتى. ولكنها مؤثرة، تدير الرأس، كتب الناس القدامى هذه. لا بد أنه كان من كتب أبي. الله يرحمه.. أمنا الغولة، نظرتها تحول الناس إلى حجر..!

وضحك. كانت عيناه جامدتين، لا ضحك فيهما.

ـ إيه.. وصلت لحد فين؟

التفت إليها. وصلنا. وضحك، بسهولة فيها توتر خفيف، وهي تبتسم، عن أسنان غير مستوية فيها شتت محبب منفرج، عن رضاب لامع ـ لا حد لعذوبته، يعرف سكره ـ ابتسامة حلوة وغامضة وجذابة. وكانت عيناه تضحكان. كانت بيوت الأزاريطة العالية قد تراجعت، ومبنى هيئة الصحة العالمية بأعمدته الرومانية الجديدة، وسلالمه العريضة، ومئذنة جامع القائد إبراهيم العالية، وأشجار النخيل الهندي في الحديقة. واهتز الترام وهو ينحرف بسرعة في تفريعة خط المحطة، فألقى اندفاعه به بإزاء جسمها، لكي يستقر عليه لحظة، في تماس حميم صلب. ثم انطلق نحو وقفته الأخيرة في الضوء والحركة وزحمة

أول الليل. واضطراب الناس يهجرون القوقعة الدفيئة المضيئة بنور لدن ينصب بسهولة من مصابيح مستديرة هادئة، كاللبن الدسم، على الخشب الأكاجو الأصفر الداكن، على الجلد البني الطيع الغنيّ القتامة. وفي احتكاك الأقدام البطيء في طرقة الخروج الضيقة، والناس يدفعونه من الخلف، مد يده يسند ظهرها أمامه، وأصابعه تستقر لحظة على صفحة الكتف العريضة، تلقى مقاومة العظام الرقيقة المغلفة بالليونة الناعمة، ويحس تحتها بالشريط المشدود على الظهر من وراء الصوف المنسدل المحبوك، وينفجر مجد المساء الأحمر في انفساح السماء على الميناء الشرقية، وقد عمق الشفق وازداد كثافة وخصباً، السحب المشتعلة أطرافها بنار لا لهب فيها، والبنفسج الداكن يتحيف أطراف النار المنهزمة. وهبة من هواء شات بليل على العرق الخفيف على وجهه، وهما يسرعان، ويلمان أطراف المعطف والجاكتة حول الرقبة والوجه، وينشقان مع ذلك نسمة تملأ الصدر، وهو يمسك بذراعها يعرف مرة أخرى ملاسة استدارته المكشوفة من تحت صوف «التوينز» الناعم، عارياً تحت الكم القصير للبلوفر، وحركته حميمة مختفية عن الأنظار، يساعدها أثناء المرور من أمام العسكري الممدود الذراع تتطاير الريح بالكاب الأسود القصير على كتفيه.

وهما يدخلان قوقعة زجاجية أخرى منيرة بنور مترب مراق على خشب مشقق عتيق. والمصعد يئز في طاقته الكهربية المشدودة.

كانت هي التي فتحت له الباب، بعد أن وقفت زنزانة

المصعد الحديدي، في طرقة بيتها الرثة، أمام جدار أصفر باهت مسدود يتساقط طلاؤه في بقع مبيضة حائلة، والباب الهش قشرة مهترة واهنة القوى، وهي تنحني بعصبية الترحيب، بابتسامة صادقة، بأهلاً وسهلاً، لتنحي أحد أخوتها الصغار من الباب، وقد جروا جميعاً ليلبوا دقة الجرس ـ الذي كان قد بحث عنه، بحيرة، بعض الوقت ـ وهم يتزاحمون بين ساقيها وحواليها. وكان حر أغسطس رطباً، وهواء الطرقة مكتوماً. ونفثات من روائح أكل بعد الظهر ونوم القيلولة ما زالت معلقة بالحيطان والبيبان ودرجات السلم المعتمة غير النظيفة. . يوه. أوعى كده يا نبيل. استنى يا توني. مش عيب يا بابا، عيب، وهي منحنية تزيح الولد العفريت الذي يجري بين الرجلين، وتستقيم فوراً، فيعود انهيار صدرها الصغير بثمرتيه الناعمتين العاريتين ـ وقد سطع لعينيه، لحظة، طرياً، يهتز، في انحنائها ـ ويتخذ مكانه الآن في مستقره من فتحة البلوزة الخفيفة الواسعة الجابونيز. وعظام وجهها الأبيض تتحدد في عتمة الباب والنور من ورائها. ويفاجئه شريط أحمر عريض معقود على الشعر البني المسترسل الهش الملمس، القاتم الآن في انعكاس النور من خلفها، خيوط نباتية كثة دمثة، وتضع يدها لحظة في يده، وتضمها على أصابعه، رخوة، دقيقة، عصفور صغير ملموم ناعم الريش، وتشده بأهون حركة وأرقها إلى داخل الفسحة، وتسبقه، وصيحات الأولاد يتقهقرون متواثبين إلى المواقع الداخلية الحصينة وهم يتصايحون: ماما أبيه شوقي اللي بيشتغل مع أبلة

نعمات. ماما عندنا ضيوف. . ماما. . ماما. . يوه طيب يا ولاد أهلاً وسهلاً. وحركة القيام من على مراتب الكنبة المريحة من أغوار المواقع الخفية لأداء واجب الترحيب في سهولة وطيب قلب.

وأخذت طقوس الترحيب مجراها المعتاد. في غرفة الصالون الضيقة، شهودها قطع الأثاث القديم والصور الزاعقة الألوان والمخدات السوداء المرسومة بالنخيل والجمال من ليبيا، وشمس بعد الظهر الحامية من وراء الستارة الكريتون المنقوشة بالورد الملون، وهو يتحدث إلى الأم عن حكاية الشهادة التي تريد استخراجها من البلدية. ويأخذ منها أوراقاً مطبقة مصفرة رقيقة الأطراف فيها عطن حائل لا يكاد يحسّ من طول بقائها في الظرف القديم بلا شك، تحت الملابس في الدرج العلوي من دولاب أو بوريه أو تحت مرتبة السرير، والخيرة فيما اختاره الله يا ضناي، نعمات والله بتشكر فيك خالص يا سي شوقي، وتعزك زي أخوها، قالت لي عنك كتير ودايماً بتجيب سيرتك بالخير يا بني، ربنا يرضى عليكم يا خويا ويسهلها لكم ويبعد عنكم ولاد الحرام، والدكتور ربنا يخليه راجل طيب وابن حلال، والثرثرة العجوز تسترسل وتطيّب القلب، وهو يستريح إليها، راضياً، ولكنه لا يخطيء فيها مع ذلك نغمة لعلها مقصودة، لهجة الأم التي ترحب بعريس محتمل، وتستكشف الطريق، وتمهد الجو لعَدَل البنت التي في سن الزواج، في ثقة وتمكن ومن غير اصطناع ودون اقتحام.

ونعمات تأتي له بالشاي على الصينية الزجاجية، ويسطع له مرة أخرى وجودها في مظهرها الجديد الحميم، في غير ملابس العمل وأناقتها المصنوعة، بأناقة جديدة مستريحة، وذراعاها العاريتان تبدوان منعشتين، نسمة من هواء البحر الطري في الحر، وقد تكسر البطن، واسترخى النهدان بجانبي البلوزة الواسعة، والبنطلون البيتي الصيفي من قماش خفيف كاروهات أبيض وأسود ـ صغيرة، هندسية ـ يستدير في نعومة بالبطن والردفين، في التصاق حميم، ويتحملها في رفق، يقيها من الانهيار في الضوء، وينتهي تحت الركبتين بقليل فيترك الساقين الفارعتين المسحوبتين رخامهما أبيض بارد. وهي ترفع ساقيها لكي تجلس على الفوتيي أمامه، إلى جنب، فترتفع القدمان العاريتان من على الأرض، وتدفعهما إلى تحت جسمها، فتلتصق بطن القدم الرقيقة بسمانة الساق المكشوفة المستديرة. وتستريح في جلستها، وترفع فنجان الشاي لكي ترشف وتستطعم، في تخففٍ من كل عبء، حسية الراحة على الفوتيي ومذاق السائل الأحمر الشفاف المنعش بسخونته، يعدل المزاج، ويرطب الجسم. والأحمر على شفتيها، من لون الشريط العريض المعقود على الشعر، والخط الأسود الحالك السواد الذي يحيط بالعينين، ويحددهما، ويكسبهما سعة ذئبية نائمة الضراوة، في صفرتهما الباهتة وهج الشاي المشع، وهي تبتسم في ارتياح، ولكن فيها شيئاً مهدداً كامناً، كأنما فرغت من أمر الفريسة، وهي تتمطى في أدغال الأثاث الرث القديم.

دخلت عليه فجأة وهـو في المعمل، بعـد انصراف الدكتـور، وحـاول أن يفرش «الأهـرام» على طبق الفنجـان، لكنهـا كـانت أسرع من حركته، ورأت نثار دخان السيجارة المفتت في الطبق، والقطعة الصغيرة المغبرة اللون بجـانبه. ولم تتكلم. كـان المعمل معتمـاً في آخر العصر، ولم يكن قـد أضاء النـور وفي عـزمـه أن ينتهي من السيجـارة قبـل أن ينصرف إلى ليله الـطويـل المثقـل بالعمل. كان وجهها رخامياً في العتمة، أكثر شحـوباً ممـا رآه في أي وقت. وقالت له بصوت مضطرب أنها نازلة، فلم يسرع إلى النزول معها كعادته. وأكمـل ما هـو بسبيله، وقضى ليلته يكتب مذكرات مستعجلة لأحد دكاترة الكلية. هل ثقل عليـك العيار؟ أبـداً والله العـظيم. لم أكن أحلم. وهـذا ليس كله بشيء، هـو يشرب لكي يساعده ذلك على السهر، والعمل. هذا كل شيء. كانت عيناها تتقدان بهذا الوهـج الأصفر المحـرق، نار مـركزة، وصوتها مرتفع ثاقب لا يعي إلا نفسه، في مناقشات ومشـاحنات لا تنتهي إلا لتبدأ من جديد، مناقشـات في العمل، هـذه المرة. هؤلاء النسـوان لا يفـرغ لهن ضجيـج، ورقـة التحليـل، الست التخينـة جـاءت اليـوم وفتحت عقـيرتهـا، لمـاذا لم ينتـه شغلهـا؟ وحسن الممرض حرامي، لمـاذا تتركـه يسلم الشهادات للمـرضى بنفسه. ليس هذا عمله، ووقـاحته معـك. ليس هذا من شـأني ولكن لماذا تسكت على لسانه السليط؟ أنت المسؤول، لا شأن له بـالشهادات. أنت المسؤول، أليس كـذلك؟ وهـل تعـرف مـاذا يقول عنك، من ورائك؟ ولكن هذا يحز في نفسي، وأنا مـالي..

والشفتان الرقيقتان ترتجفان، شفرتان حادتان لشيء قاطع، وهو يحاول أن يناقشها، أن يرد عليها، بحجج هادئة، وقد جف قلبه، ونفسه تفور. هل العمل حقاً هو مبعث هذه المجهات التي تكاد تفقد فيها كل تحكم في نفسها؟ أم السبب امرأته، وحكايتها، أم اكتشافها في المعمل، في آخر العصر، أم هو حبوط ما في دخيلتها يتفجر بالقشرة الساكنة البيضاء، ويشققها، عن هذا النفث من لهب وحميمٍ آن؟ وهو ينهض، ويدور حول جثة الآلة الكاتبة السوداء، والأوراق المتناثرة. ونور الشمس ينصب من النافذة الشرقية بزجاجها السميك العتيق، ويسقط على كتفها. ثم يأخذ بذراعها يدعوها أن تجلس. ندت عنه لحظة، ثم استرخت في المقعد، كأنها قد استنفدت معين غضبتها، والكتف المدورة الناعمة تحت القماش الأبيض الخفيف مشرقة في أشعة الشمس، حلوة الإستدارة، وينحسر طرف «الجيب» من أعلى الساق، وركبتها البضة فوق ساقها الأخرى، واعدة، متحدرة من ربوة الفخذ تحت النسيج الصيفي. بم يرد عليها؟ وما جدوى الكلام؟ أي شيء يحقق له ما يتوق إليه من اندماج كامل، ووفاء كلي بالوعود التي ينبض بها الجسد؟ ما من شيء فيه وفاء بالوعد. ما من سبيل إلى الوفاء بالوعد. وعليه أن يروض نفسه، ويسومها الصد، وينأى. عليه أن يجاهد هذا الحريق اللاعج الذي يطوح به، يدفعه للارتماء على أبواب هذا الهيكل الباذخ الناعم الرخام. وينحني، وهو يرد عليها. وشفتها السفلية الداكنة الحمرة ما زالت ترتجف، أهون رجفة، مكتنزة

بخصب لن يعرف طعمه أبداً. حتى لو عصفت الأنفاس الحارة، ودفعت ظمأه إلى الثمرة الغنية بالرحيق، فهناك في داخله منطقة جدب كاملة لا ارتواء فيها. ذراعاه فيهما توتر كهربي مشدود، لو أنه ضم إلى صدره هذا الهيكل المنيف. هناك فيه منعة لا تطال. وبصره يقع فجأة على ثنية تحت زرين من أزرار قميصها الصيفي، ثنية من البطن العاري تحت القماش انكشف للضوء في انحناءتها للأمام، وهي تضع ساقاً على ساق، عجين طري متماسك القوام تحت كنزين صغيرين يحملان وعوداً أخرى مخبوءة في ضمة النسيج. ألم يعرف هو، عبر محنته الطويلة، ختل الوعود؟ زمّ نفسه، في عناد لا يطاق، عن أن يحيطها بذراعيه، فهو يعرف، يعرف أنه لن يجد شيئاً. ومهما كانت النار موقدة في المحراب، فإن قدس الأقداس خاو على عروشه. وهو يعرف أنه سيبقى دائماً، دائماً، خارج الأبواب، يشرب، ويعمل طول النهار، ويعمى من الشرب والشغل، هذا كل شيء. رنين الجرس المفاجىء العنيد، فتقوم ترد على التليفون. نداءات معدنية مصمتة لا بد من الرد عليها، التليفون والباب والساعة والترام، تحرّشٌ لا ينقطع ووخز الإبر المشرعة في اللحم الحي.

صدى صلصلة الجرس تحت سماء مفتوحة باهتة صافية مخففة الزرقة بالماء، كِسَف السحاب البيضاء في الشرق تخفي استدارة الشمس، وينسكب منها ضوء رقراق طلق صحو، والترام يصعد فجأة، في رحلته الطويلة، على كتف من الأرض الرملية، يتسنم متن الطريق، بين سورين من أسلاك مشدودة على أوتاد حديدية

عالية. وتنكشف زرقة السماء من بين الأسلاك، وهما في الترام، فوق، على القضبان، فوق قمة العالم، تحت السحاب الأبيض، النوافذ مفتوحة يهب منها النور المبلول القادم من البحر، وهناك فجأة، تحت، تنفسخ أمام عينيه، الصحراء. ومدينة الملح في وسط العراء. امتدادات من مياه الملاحات الساكنة تتلألأ عليها طبقة بلورية من الملح اللامع. وتقوم في وسطها أبراج عالية مخروطية، عليها صلبان فضية تلمع وتعكس وهج النور الصباحي، وقباب مستديرة مغبرة البياض، ومآذن سامقة نحيلة، وتبدو له سطوح البيوت، والمنائر، متلاصقة مربعة، ومستطيلة، مبنية بالطوب والحجر. وقد ساخت البلدة كلها في وسط مستنقعات الملح، وليس في المدينة من حركة، وسط المياه الساجية المكسوة بالملح، سهول فسيحة حواليها، والماء الملح يترقرق على طين رملي رخراخ، أمواجه ضحلة صافية على قاع الرمل، يلعب تحتها الضوء، في قلب الصحراء الشاسعة المسطحة حتى الأفق، ويهبط الترام فجأة، تغور به الأرض، وترتفع حواليه السدود الرملية القديمة المغسولة بمياه الأمطار من الشتاء، فيها تجويفات رملية صلبة، والترام يشق النور الخفيف الساكت، في رؤيا من حميا رائعة، وأوراق التين الشوكي الصلبة المشعثة ونباتات الصبار الجافة الداكنة، منتصبة شائكة، تضرب فيها عصارة كثيفة نزرة الماء.

وهما وحدهما، في الترام الخاوي، يقف على المحطات الخشبية، والأرصفة خالية، ويقوم. والسائق مندفع، بين

فجوات الصمت وضجيج القرقعة، ويده تتلمس يدها، وتعثر عليها، فوق استدارة الجسم وبين حناياه الطرية، وتتداخل الأصابع في تماسك حميم وثيق، في بحثٍ ملهوف. عظامها الرقيقة تصطدم بأصابعه، تحت جلدها الدمث، الغض، وتدفن نفسها بين ثنيات يده، متلمسة أيضاً، تنقب عن شيء ما، عن تواصل ما، عن اندماج محموم، متعجلة، تجوس، وترتاد، وتتفحص، في إلحاح، ولجج، ولهفة. والدماء تضرب في رجولته. الأبراج والقباب تنبض تحت الشمس، في مدينة ساحلية مهجورة في الصحراء، تحت طبقات الملح. والخطوط الحديدية تتشابك وتتداخل وتنفرج، والمحطات تتوالى، ثم تتراجع بين الرمال.

والترام يقف، ها هي ذي المحطة، وينتزع يده، ونفسه، منها، فجأة. ويقف، لا يقول شيئاً، وإنما يجب أن يجري، وينزل يلحق محطته، قبل أن يقوم الترام، ويندفع، في غشاوة محمومة منيرة. وما تكاد قدمه تمس أرض الرصيف، وما يكاد ناظر المحطة، الذي يقف وحده، ينفخ في صفارته، وما أن يستدير ليلوح لها بإشارة التحية والوداع، وينفث الترام أولى آهاته، متأهباً للحركة، ويصلصل الجرس، حتى يدفعه فجأة شخص ما، من ورائه، دون أن يراه، إلى داخل الترام، بينما الترام يتحرك. وهو يقبض مرغماً، متشبثاً، على حاجز السلم بخشبة اللامع القديم، في هذه الحمى الساطعة، في صمت المحطة الصحراوية الخاوية، وهو على سلم الترام، وقد بدأت

القضبان الحديدية تتراجع تحتـه، وجسد القـاطرة يـتزلزل في أول حركة. وإذا بحـاجز السلم الخشبي ينخلع مـرة واحدة في يـده، ويرتفع في الهواء. وهو يتطوح، والترام قد تجمعت طاقتـه واندفـع إلى الأمام. وهو قـد تزايـل، لا يستند الآن عـلى شيء، وقدمـاه تـتزعزعـان من على السلم، والـرصيف قد تـراجـع، ويـده قـد ارتفعت قبضتها بالحاجز المخلوع، وهو يتطرح، ويتهـاوى، على وشـك الـتردي إلى الـــوراء، في سرعـة انـــطلاق الـترام. ولكن الكمسـاري يمد يـده فجأة، ويجـذبه، ينـتره إلى الـداخـل، مـرة واحدة، وهو يثب، لا يحس شيئاً، وإذا هو في الداخل، في أمان مؤقت لحق لهفتـه، وآواه وراء زجاج الـواجهـة، عـلى رقعَـة من أرض الترام المعدنية المنطلقة في طريقها.

يا أخي مش تحاسب، حصل خير على كل حال، الحمد لله، جت سليمة. كأنه هو المذنب، كأن هذا الحاجز الخشبي المخلوع لم يكن هنـــاك، ولا ذاك الـذي دفـــع بـه إلى سلم الـــترام، من ظهره. كأنما كان سيقع، وتقع الحادثة، بخطئه وذنبه. وكانت قد ظلت جالسة، بلا حراك، تشخص إليه ببصرها، ثابتة النـظرة، في عينيها ماء متموج مغرورق، لا ينسكب، صـامت، على قـاع أصفر ذهبي باهت، به نقاط رقيقة سوداء.

والكمساري يتجه إليها، في قصد، يـطلب شيئاً، مهـدداً، لا يتكلم، لكنـــه لن يـتراجـــع. ومن ورائـه، من الـــدور العلوي للترام، نـزل الأعـراب، متجهـين إليهـا، يـطلبـون شيئـاً، لن يتراجعوا. لمة من البدو، هم من سكان العامرية، بـلا شك، أو

هذه البلدة الصحراوية، من النازلين في المصحة. على أكتافهم ورؤوسهم بطانيات صفراء ناصلة، بها مربعات زرقاء باهتة، يخفون بها جوانب وجوههم، لا تبدو إلا عيونهم السوداء الضيقة، جامدة، عميقة لا يسبر لها غور، تحت أهدابها الشقراء، على الجلد الأسود المدبوغ، وثنيات الغضون في وجوههم تبدو خطوطاً رقيقة معرجة بيضاء في الجلود القشفة التي صوَّحتها شمس لا ترحم، وصَهَدها حَرّ قاس لا يني يعود يوماً بعد يوم. وحول الفم تقرحات بيضاء، كأوراق معرّقة باهتة، ممزقة من وسطها مزقاً مشعثة، يغطونها، بأطراف البطانيات، بأيديهم المعروقة السوداء التي تشعّب البياض وتشرَّج في سوادها، بأزهار وحشية الشكل، شائكة كالصبار. وهم يجتمعون حواليه، وراء الكمساري، صامتين، عيونهم ترى، ولا ترى، محترقة، مصوبة نحوه، مشدودة إليه، تسطع في غورها، لا تطرف. ماذا ترى فيه؟ كل منها شمس صغيرة متقدة، يتألبون عليه، بأعوادهم الضيقة الخاسفة، ضاوية أجسامهم تحت البطانيات، وقد حفوا به، كأنما يتوقعون منه الخيانة، وينتظرونه، وقد اعتورته، برغمه، سحابة همومهم، وغشيته غاشيتهم. بؤرتهم هو، هدفهم، ونواة احتشادهم. ويمد إليه الكمساري إصبعه، في تحذير، هؤلاء قومك، هؤلاء ناسك، اطلب أيآمنهم تجده. تحت أمرك. أنت منهم، وهم لك. أنت، نعم، أنت.

وقد ارتمض من ذعر مفاجىء، نفضه من شلله، فهب يفلت من خطر محيق.

ويندفع، دون أن يدري، يجري، يثب، ويسقط من الترام المنطلق بها، بالكمساري وبالسائق، وبهم، بهم جميعاً. هنا محطته، لا طريق له بعد الآن. وتتطوح الأرض تحته، ترتفع إليه، صلبة، ثم تنخفض به. وهو يجري. تتلاحق ساقاه إلى الأمام، يكاد ينكفىء على وجهه، ويستقيم، لا صوت يند عنه، يلوّح بيديه. والترام قد انطلق بعيداً عنه، أصم، مغلقاً على ما فيه.

ويقف، يشد قامته، وقدماه تثبتان على الأرض الرملية، يصدر عنها حفيف جاف في السكون الذي يعود فيرين على كل شيء. وليس في قلبه حس ما، إلا بأنه وحده، وقد وصل إلى آخر السكة. وحده، في رمل الصحراء، ينسكب عليه ضوء رقراق من وراء السحاب الأبيض الخفيف. والهواء جاف، طاهر، والصمت مطبق، تام، في فراغ الصحراء، أمام الخطوط الحديدية الممتدة، حتى النهاية.

الأميرة والحصان

انكسر العمـود، وندت عنـه دقة واحدة، نهائيـة. وانـطبقت الظلمة، والدهشة. تهاوت عظامه على الأرض، طرية، كـالماء، تجتذبها الرمال المتربة القـذرة المتماسكـة. وعنـدمـا فتح عينيـه كان السقف عالياً جداً، بعيداً، بقماشه المسـودّ الصفيق، متهدلاً بـين عروق الخشب المائلة، ساقطاً على العمود المربع المفتـول. لم تكن هنـاك نسمة هـواء. وفـوق الصخب والضجـة والنـور، كـان في السقف ثقب صغـير أسود تـبرق فيه، من بعيـد، نجمـة وحيـدة صلبة، عين قـاسية. والعـرق ينثال من بـين أبطيـه، خيطاً سخنـاً جديداً، والأرض خشنـة تحته بحبـوب الرمـال والتراب الـدقيقة الحادة. والفحيح ما يزال كـالمعتاد، عن الكلوب الضخم المـدلى، شرساً، على رأسه. سحابـة مسدودة من النـاس تتجمع حـواليه بسرعـة ولا تنهمر، ولهم طنـين، يحدقـون بـه من كـل جـانب، كالناموس الكثيف تحت شمس ظهر حار. ومن ورائهم موجـات متراكبة من الضجيـج واللغط، لا بلل فيها لشفتيـه، تنكسر على هذا السور من الأجسام المنحنية عليه. لم تكد تمر لحظة واحـدة. هادئة تماماً، خـاوية، لم يشـاركه فيهـا أحد، ولا شيء. تقـوض

فيهـا هيكل كـل شيء. صدمـة الألم لحقته فجـأة، زلـزلتـه مـرة واحدة، وغمرته، وأغرقته، ثم انحسرت عنه. وتركته مغسولاً، أبيض. ضربات الطبول توقفت ثم عـادت، وموسيقى النحـاس تصـطفق. كانت عينـاه صاحيتـين، وهو عـلى الأرض، لا يحس الآن ألمـاً ولا دهشـة. وجلبـة النـاس حـواليـه، يشـورون ويتصايحون، ضوضاء لا صلة لها به. وحواليه فراغ كامل، فجوة له وحده وسط زحام متكاثف مكتوم، وهو ينـظر إليهم بعينين لا غيـام فيهما. دخّلوه من هنـا. حاسب. تليفـون للإسعـاف. فيه دكتور هنا؟ الإسعاف جاي. اعملوا معـروف والنبي. لا سليمة الحمد لله. مات يا عيني الجدع. يا حرقـة قلب أمك يـا خويـا. بصوت ناعم هادىء مدفون. سليمة. ما ردش منطق. سليمـة. إن شاء الله سليمة. دخّلوه هنا، الإسطبل من هناك. حـاسب. اعملوا تليفـون للنجـدة. والـطبـول تخبط، لا تـدق لـه. طنـين الـذباب الأزرق الكبـير في شمس الضحى العالي، وتحت وجهـه حس فتائل الخيش الخشنـة، والتبن، والتراب، بـرائحته الجـافة المصوحة الحريفة في الشـوال تحت صفحة خـده وفي أنفه وفمـه. وهو يتقلب، ويفتح عينيه في عتمة صباحية يحيط بها قماش خيمة الإسطبل الكـابية القـديمة. وسلطان يـزفر في معـلاق التبن تحت خـطمه، وينفـخ فيه الهشيم الأصفـر الدقيق المتـطاير مـع الغبار والذباب في حزمة الشمس الساقطة بـين فجوات القـماش. يدق الأرض في توفز، بحوافره القوية، وساقيه الأماميتين المخـروطتين الـرشيقتين. ومن ورائـه الخيـل الأخـرى مـربـوطـة في أوتـادهـا

المرتفعة، في آخر الخيمة. الساعة كم، عشرة.. إحدى عشر.. غسيل الخيل الآن، وتمشيتها في الحوش. دبدبة الأرجل حوالي الإسطبل، وشتائم السياس واللاعبين والمروضين والعيال، من الخارج، مكتومة، نبحات الكلاب الدقيقة الثاقبة وزئير السبع العجوز، أجوف قصيراً خاوياً، مع صلصلة باب القفص. وهب يجلس على فرشته وظهره يطقطق من وجع النومة على الأرض الجافية. يلعن ديك دي بلد، لم يطلعوا منها حتى بثمن العلف. ما زال على مولد سيدي البدوي شهور. ربك رزاق كريم. مولد أمبابة، ومار جرجس، والمنصورة، وسيدي الدسوقي، وموالد القرى، هدة حيل من السفر والقيام والحط بالسكة الحديد واللوريات وآخرتها نفس النومة على الأرض في كل مكان. أم لعله العجوز ابن الكلب يريد أن يأكل حقنا. حار ونار في جتته. بس يشغلنا سايس وبلياتشو وبياع تذاكر وصبي عالمة، مغسل وضامن جنة كمان. والله لو ما الست أميرة. نهايته الأرزاق على الرزاق. يا فتاح يا عليم على وش الصبح. وتوقفت عيناه فجأة على العصافير، وجمد. كانت العصافير تثب وتزقزق في خفوت، بين سيقان سلطان الرقيقة السامقة وأجنحة الذباب الأزرق الكبير التي تعكس شعاعاً بنفسجياً زاهياً، وتنقر بعظام أفواهها الدقيقة أكوام الروث السوداء عليها الكرات الجديدة الصفراء الساخنة التي يتصاعد منها بخار خفيف، وتنط على التراب والتبن، صغيرة متوترة بريشها الرمادي الداكن في غبش الخيمة في الصباح، تفترق

وتلتقي على العلف والتبن وبين جرادل الماء وفرش الغسيل، وتسقسق بصوتها النحيل بين المجاري المتعرجة التي خطتها على الأرض مياه بول الخيل. والرائحة النفاذة تتوقد وتشعره بإلفة وأمان، بأنه في بيته، بين هذه الأجسام العضِلة الحية التي يستمد منها جوهر حياته، لا يستغني عنها، والبطون المستديرة الضخمة تنبض أمام عينيه، نبضاتها السريعة. وصهل سلطان فجأة، ورفع خطمه المبلل الذي علقت به نثارة التبن وتطاير منه رشاش سريع، وجاوبته بربرة متلاحقة من صهيل بقية الخيل، فتواثبت العصافير في لمحة، سحابة صغيرة من الريش الذي يزف والشقشقة الثاقبة المذعورة، إلى فجوة ضيقة في قماش الخيمة الممزق رشقت أنفسها فيها في انطلاقة مسددة لا تخيب.
وضحك، ووقف يحك أنفه من التراب، وفي فمه جفاف القيام من النوم في الضحى العالي، يستشرف سخونة طعم الشاي وسلساله الطيب على اللسان وفي قصبة الصدر، ومد يده يطامن توتراً سخناً جافاً من وخم النوم الدافىء ومن رائحة أجساد الخيل. طالما نشقها من استدارات طرية أخرى، من حنايا اللحم اللدن تحت مايوه الشغل الساتان الأبيض، في ضوء الكلوبات الحارالمشبع بالتراب، وسط الموسيقى النحاسية الجعجاع، وهدير الناس على مقاعدهم الخشبية، وهو يتدحرج ويلعب نمرته في الليل، والساقان الخمريتان الصلبتان على ظهر سلطان قائمتان، من رخام لامع ندي مسنون، يحملان جلال الدنيا وطراوتها ومجدها، وقرقعة السوط المرفوعة به ذراعها

الملفوفة الناعمة، نضيرة بلمعة العرق ومتوترة، عالية في الهواء، ودورات سلطان الضخمة الرشيقة المتسارعة باطراد، حول الحلقة، وهو تحته وجنبه يتقلب ويجري ويدور ويثب، ويلطم وجهه من الخوف والإعجاب فتترامى إليه الضحكات الخشنة التي ينفرج بها توتر الناس أمام خطر الدورات الجريئة المحسوبة، وأمام الفتنة المتحدية التي تقطع الأنفاس من المايوه اللامع المحبوك، والرائحة تغزو جسمه الآن، ويتوتر لها، أميرة، أم سلطان؟ حريفة، لاذعة، بها عطن حلو من نفح العرق الأنثوي. وذكورة الخيل معاً. ويفجأه الصوت الخشن العذب، صوت بنت البلد الذي يصدر عن حرية كاملة، دون أدنى كفٍّ لما يجيش فيه من غلواء شبابه: هو ابن الكلب ده لسه ما قامش. أنت لسه نايم يا واد أنت؟ مالك واقف مبلم كده ياد؟ هِمّ شف شغلك بقى يا بن ال.. بنبرته الممطوطة، وسيطرته، ودلاله، ومعرفته بأنه لن يُرَد، وثقته التي لا يعتورها شك بأنوثته اللينة. وهي تنحني لترفع قماش الباب ثم تتركه ينسدل ويحف التراب. ويحيطهما، مع الخيل، حضورها الحميم الحار في الخيمة المقفلة، وتولد الحياة في الجسم الفتي، تحت الجلابية الرجالي الواسعة المشمرة الكمين التي تحب أن تلبسها في الصبح. الله ـ ما بلاش شتيمة على الصبح يا ست أميرة، يا فتاح يا عليم. باحتجاج مَنْ يعرف انه ليس هناك ما يحتج عليه. ما احنا قايمين أهوه. ما تصلي على النبي أمال يا ست الكل. نهارك حليب إن شاء الله، يا صباح الفل. طقوس معابثة الصبح التي تفتح أيامه

وتحلّيها. فل إيه يا واد إتنيل على عينك. ما تبطل لماضة يا واد، نهارك أبيض يا خويا، هِمّ يا واد بقى بلاش لكاعة. بسخرية حميمة أليفة فيها رضى، ولا مبالاة، وقد وضعت يدها تضغط على عنق سلطان التلعاء العضلة، فراح يحمحم، بخطمه المبلول، في يدها الأخرى المدودة بقطعة السكر تحت شفرتي فمه الغليظتين المرتجفتين، وعيناه متسايلتان من الحب. وهي تلقي إليه بنظرة بينما ينحني يلملم الفرش وينفض معلاق التبن ويصطدم بالكيزان ويرفع الجرادل، بساقيه الهزيلتين السوداوين الناصلتين تحت لباسه الأصفر الواسع المتهدل إلى ما فوق ركبتيه والبلوفر القطن الحائل الاخضرار على فانلة نصف كمّ اهترأت رقبتها، من تحت البلوفر المغضن، حول قفص الصدر الناحل المدور، ويهرش شعره المجعد ينفض عنه نثار التبن ويحك منه تراب النوم، وسقطت يداه إلى جانبيه، ذراعاه ضاويتان متسختان لا قوام لهما. وسلطان بجلاله الرشيق يدور، يدور بسرعة، ينزو صاعداً وفوقه النصب القائم الجميل، لامعاً، متوتراً في توازن ثابت ولكن حرج رقيق، مشحون بحياة متفجرة مكبوحة معاً، والترتر في حواف المايوه الأبيض يتألق تحت ضوء الكلوب، وينطفىء، ويتوهج بألف لون، يعلو ثم ينخفض، وهو ينظر برأسه المسبوكة المنحوته إلى مواقع حوافره التي تعرف إيقاع دقاتها على الأرض، ويفلت منه وهو يجري حواليه، يدور ويتقلب على الرمل المفروش الترابي، وينكفىء على وجهه بحركاته التي حذقها حتى كاد ينساها، وما زال سلطان ينفلت

منه، يسبقه، وفوقه أميرة، يقتحمان المدرج الخشبي، يلف مرة أخرى، في الهواء، جسمه الأشهب المشوق يخترق الناس المتحلقين الساكتين، يدور بهم، وفيهم، يمر من خلال الألواح الخشبية الرثة المتمايلة، ينفذ عَبْر الأفندية بالجاكيتات الضيقة الكتفين على الجلاليب الإفرنجي، والمعلمين بكروشهم الراسية وقفاطينهم الجوخ الغالية وشيلانهم الزاهية الحريرية، ويثب على دكك الترسو المكظوظة بالجلاليب والطواقي والعمم والمللايات اللف. على ثبج ظهره العاري المسبوك الأملس عمودان من مرمر مخروط ينهضان بالجسم السامق الذي تهتز فيه أمجاد العالم، في الساتان المحبوك، في سورة ساطعة. بلا صوت. السوط في يدها تلتوي انثناءاته السريعة لساناً حاداً نهماً ملتهماً، دون قرقعة، لماذا سكتت الطبول؟ الآلاتية في التخت يدقون ويخبطون، وأقراص النحاس ترتطم وترتعد بين اليدين المحمومتين، في ذبذبتها الكهربية الخاطفة، ولا صوت. الأفواه محيطة بالأبواق تمسكها مسكة خبيثة لا تريم، الرقاب منتفخة الأوداج من عزم النفخ، ولا صوت.

سلطان يدور، في تصميم لا يبالي شيئاً إلا دورانه، وأميرة ترتفع حتى تكاد تمس قماش السقف الأسود الداكن، فوق الكلوبات التي تئز بنور شرس، ثم تهبط في وسط الناس بين عواميد الأخشاب المتشابكة، من خلال الدكك الطويلة الدائرية المتأرجحة، يحملها اندفاع الحصان الذي يشق أمواج الصمت والوجوه الصلدة الصخرية، وزحمة الأجسام المتلاصقة لا يند عنها حس، ولا صوت. نواة صلبة من عناد مغلق متحجر، في

غور الأحشاء الطرية المبللة المرتجفة بالدم، لا تند عنه آهه. غاشية متملكة تطوف بقضبان الضلوع الخاوية دورة بعد دورة، حول البذرة الجافة، تسمو وتسوخ بها الأرض. في البؤرة جيشان مكبوت يهم بأن يلفظ نفسه، ويمجها، ويصده إصرار ما، ويحدق به تماسك العظام الحرج، في وسط الحلقة الدوارة، عمودها قد انكسر، ولا يسمع له صوت. حفيف النفس يلهث، ولكنه يعمل بانتظام. مركز ثاقب من النور يجرح، يجرح العينين، إبرة مرهفة السن مغروزة بثبات في حدقتي العينين المفتوحتين، لا تطرفان. كحل يحيط بالعينين الحلوتين. ما أندر العيون الحلوة، وطفاء، أهدابها تفرش على الخدين الأسيلين القمحيين، فيها خجل ومعرفة نضرة بعد وعميقة معاً، عروس جديدة بفستانها البمبي برقبة مكشكشة، تحت الطرحة السوداء، وعقد كبير أصفر الحبات، وعَصبة الرأس بالمنديل تبدو تحتها قصة الشعر السوداء الناعمة، وإلى جانبها زوجها الفتي بوجهه الناحل الخشن المجدور الجاف، وعينيه القلقتين، عموديّ في جلسته المحرجة، جلابية ببوشها لم تغسل بعد، رقيقة النسج يتطاير بها الهواء على أوتاد متراكبة من خشب عظامه، وطاقيته بفتة بيضاء، مزهَّرة، يجلس في توفز يشي بارتباك مدوِّم، والبنت بجانبه دسمة طيعة، تدور بعينيها الحلوتين المكحولتين في الناس، تنظر إليهم لأول مرة كأنما انجابت عنهم - لا عنها - غشاوة عذرية كانت تحجبهم، فهم يسبحون الآن في ضوء كاشف متغلغل، وهي تراهم الآن بعين فيها خبرة جديدة.

وهو يتدحرج مع العينين بين سيقان الحصان الوثيقة المدملجة التي تطفر بلا صوت وتشوخ به في الهواء على كتفي البنت الصغيرة السمراء، بوجهها الجائع، وصدرها الأمسح الضيق، في فستان العيد المجعد المغضن الثنيات، ترفع ذراعها الممصوصة الطينية، بنصف كمّ، تنزلق عليها غويشة زجاجية لامعة، وتتعلق برقبة أب عجوز مخدد الوجه، ناتىء مشدود الجلد على عينين محترقتين، تحت طاقيته الصوف الكابية. البطن الأشهب المستدير ينبض في دورته، يغوص في مياه الوجوه، يشق السطح ويهبط بلا نفَس، وفي اهتزازات المياه الشفافة. شبه مفتوحة متدلية تستطعم، في وهم حسيّ، مذاق عجين الجسد المشدود وقبابه الخمرانة، وكوفيات ملتصقة برقاب مختنقة. الحوافر الصلبة الدقيقة تدق في الهواء، وترسم إيقاعاتها الهندسية المحكمة، في عطن الملاءات اللف القديم المسدود على نفسه، يلمّ عطب نصف العمر، في وخامة دفء تفه الطعم لا حرافة فيه ولا حلاوة، لم تعد منه جدوى. العينان المدورتان اللامعتان الذكيتان مصوبتان إلى الولد الذي يضحك، دون صوت، فترد عليه البنت الشقية الممراح بابتسامة صافية، بدلال، وتدفعه في صدره، وهي تفتح فمها وتغلقه، تومض أسنانها، تشتمه وتضحك، بصمت تمتمة شفاه في قراءة صلاة، على حصير ناعم محاط بأعمدة حجرية بيضاء وشبابيك زجاجية بأشعة شمس أرابيسك. الرقبة الشماء شامخة تنتهي بعضلات وطيدة عند أركان الصدر العريض المتين الأساس، تمزق كثافة الناس باعتدادٍ فيه كل التمكن والجلال.

وهـو يتقلب معه، يقـوم بشغله، شأنـه كل ليلة، عينـاه معلقتان بنجمته الشاهقة ذات الأشعة القوية الـراسية القـواعد عـلى متن موج أشهب وثيق العضل، تطير في الهواء، وتنقلب ـ هذه لعبتها المخيفـة الرائعـة ـ على ظهـر الحصـان، وتعتـدل عـلى الفـور من جـديد، مشـدودة ثابتـة، وتخطف أنفـاس الناس، ويـدوي رعد التصفيق والضجيج، وتـعود تـدور، وتنقلب من جـديـد، وإذا البنيان يميل، أهـون ميل، ويتضعضـع ـ لحظة واحـدة أو أقل ـ وقلبـه يرتكض في جـوفه، من اللهفـة والفزع، ويتـطاير هـوجـاً، وهو يندفع في لهوجـة مجنونـة وتصميم لا يعي شيئاً إلا انـه يبذل نفسه فدى، يقيم من جسمه السفساف الضامر صخراً أمام المـوج المتحدر المتهاوي. هل استقام البنيان المتقلقل، واعتدلت على عودها سارية الشراع، أم انصهرت الدعـائم وتسايلت في زلـزلة عـارمة جرفت أمامهـا نُقاضـة السد الضئيـل؟ لم تنتفض به إلا انـطلاقة رمت به تحت أقدام كل المجد الذي في حياته، الذي في الحيـاة، يقيمه ـ بكل ما لديه ـ من خطر النقوض والتردي. وكل ما لـديه لا تبدو له أبعاد ولا أوزان ولا ضِخَم. لا يعرف ولا يخـطر له أن يعرف إن كان شيئاً كهبوة غبار تسف به نسمة هواء أم ضلعاً من جبل يملأ حيز الوجـود كله، جَلداً راسخ المتـون. الناس في مـاء جمودهم الصفيق المصقول، يهـدهدهم الخـطر وتهوم بهم سحـابة استغراقٍ كامل مبهوت، ومـا من شاهـد على هـذا التفلت الذي طـوح به، هـذا النـزوع لـلاستشهـاد، دون شهـادة. تـدحـرج البليـاتشـو على الأرض مرة أخـرى، دحرجـة رثة، لم ينتبـه إليها

أحـد. ولـــم يتحـرك. ومضى سلطان في دورتـه، وعــلى ظهـره العاري صرح ثابت ناعم عال من جسدها المنتصر الـذي يومض حَجَره الأبيض. ساق رقيقـة ممشوقـة مشدودة العضـل، متفجرة متنزية بحياة لا ردة لها، ضربته ضربة واحـدة، أم وقعت الخيمة كلهـا، وانقض العمـود، وسقـطت السـماء؟ وجنـدلت الأشـلاء ملمومة في إطارها الذي انقصم، وهيض، كأنها سليمة لم تمس، طـريـة كمجـرى من المـاء النـزر عـلى رمـل قليـل، سريـــع إلى النضوب، وشمس صغيرة قاسية تحـدجه، في الصمت، من غـير دهشـة. ينفجر كـل شيء بالصـوت فجـأة، فـرقعـات البمب في الخارج، وقصف الطبل الضخم، رتيباً أجوف، يرن كل صدى له في احتشـاد مليء، وقـرقعة الصنـاج النحاسي وهـزيمة المـرتعش، وانـطلاق البوق في تمـوج كثيف يسد المسـامع وأزيـز الكلوبـات سرب هــوامّ متقد مستمـر لا ينتهي له احـتراق. وسّع يـا جـدع تلاتة بريمو عندك. فتّح عينيك تاكل ملبن. وهديـر الأصوات في لجة مترابـطة الأطراف ثقيلة القـوام، وضحكات أنثـوية متخلعـة وتحـديات متحـرشة وإثبـات للجـدعنة بصـوت جهـير، وجلجلة السبـع العجـوز، وجمجمـة الخيـل، والكـلاب تـوقـوق خـائفـة بصيحات صغيرة، وأنفاس التراب تحركه الأقـدام وزحمة البهجـة بالمولد تطن وتدور في سحابة من دخان مشاعل النيران ومصابيـح الغاز على عربات الترمس وكهرمان الحمص المدور الصغير وحب العزيز اللحميّ الأشعر وأزيز مـزامير الغـوازي وزمزمة المواويـل الـطويلة وغرغـرة النـراجيـل ونشيش عـدة الـوشم عـلى الأذرع

والصـدور والصوت المبحـوح يجأر في قلب الغـمار فتح يـا جـدع الرجا الابتعاد من السبوعة اللي معاه عيّل يمسكه في أيده المروّضة المصرية العالمية تدخـل على الأسـد البنت المصرية تشكم الأسـد ياجدع وتلعبه فتح عينيك وصلّي على النبي مَلحة في عين اللي مـا يصلي على النبي الست داخلة على الأسد يا جدع. وتعليق بذيء وضحكة مقرقرة طويلة متحشئة، ودقات الطبول قـد جنت وفقد النحاس كل إيقاع وعـاد رعداً مقعقعاً متعـاقب الخبطات متـوالياً محموماً ينتهي إلى سكتة غائرة عميقة جوفاء، ثم فرقعة السـوط، وصفقـة باب القفص يصلصـل بالقـوائم الحديـدية، وقـد أحيط بالبنت والأسد في وسط القضبـان. الكل يصفّق. . الـلي بحب النبي يصفّق يا جدع. ومطرة متناثـرة القطرات من التصفيق لا اقتناع فيه وإن كان فيه فرح، وهيصة. والـزئير الـواهن العظميّ له صدى بدائي مسحوق، دورة مذعورة أمام العصا والكربـاج، رأسه مائلة منكمشة ونظرته المنطفئة مثبتـة بـالتهديـد الماثـل أبداً، ثم وثبـة كقط منهوك عـلى الكرسي العـالي وقد اسـتراح من تعب اللف والـدوران، والعُرف الملبـد بالقـذارة والتراب متـدلٍ عـلى ضلوع نحاسية صدئة معفـرة. وهو يـدور ويتقلب على الأرض، يـدخل القفص من خـلال القضبان القـائمة ويخـرج منها. كـأن الحديد المنصوب خطوط ماثلة في ناظـريه وحـده، وهم مشقق لا يـراه أحد غـيره، ويصفق بيديـه ويلطم وجهه في رعب مصنـوع لاستهلاك الناس، وإعجابٍ موضـوع الخطة، وضحكـات قليلة تصل إليه، ونفحات هذا الكـائن ذي الألف وجه والألف عـين

والألف يد تملأ خيمة السيرك المهدلة المحتشدة بأنفاس بدائية أعمق وقعاً من الزئير الأجوف الخشن المبحوح. يستفزه ويستفزه هذا الجمع الوحشي الذي يتلمظ بتهديدات متهاوية الأركان فيريد أن يثبت له شيئاً ما لا يدريه. فهو مع الأسد وزمجرته، وتحت سيقان الحصان، ومع البهلوانات، ووراء الراقصة، وحول الحلقة، وعلى طول الحلبة وعرضها، يقفز ويقع ويتدلدل ويندلق ويتدحرج ويتدأدأ في هرولة ويتدربأ ويبرك على الأرض جامد الوجه مصبوغاً ويتهاوى وينط ويجري في دردبة ويتشيطن ويعوج خلقته المرسومة بالأبيض والأحمر للصغار والكبار ويطفح الدردي، بلقمته، في الليل والنهار. عندما فتحت عيني، على صهيل الحصان وحمحمته، كانت تقف على رأسي في الإصطبل، كانت قدمها في الشبشب المفتوح تدفعني في جنبي، بأصبعها الكبير، توقظني وهي تشتم شتيمتها الصباحية المألوفة، وثورة عاتية من صدمة اليقظة وألم الدفعة في صدري تهزني وتمخضني وتضطرم بجنوني ثم تنفثىء فجأة وأنا في خدر اليقظة المضطرب. وكانت واقفة في العتمة، في رائحة الدفء الحيواني الساطعة الكثيفة اللاذعة، والجلابية الرجالي تسقط على ركبتيها لتؤكد ملامسة مدورة ناعمةً فيها، وقدمها اللدنة، بعظامها المكسوة المبطنة، مرفوعة في حركتها السريعة، بيضاء منبثقة، بحياتها المتحركة المشدودة، من عتمة الجو، ومن العتمة الداخلية الأخرى للثوب السابغ المنسدل. رفعت رأسي من النوم أحس أني أموت من اللهفة، في داخلي عصفور محبوس يتخبط في

ضلوع صـدري، أصابـه سعار انـطلاق لا سبيـل إليـه، وجهي يتقلب عـلى خيش المخدة المحشـوة بالتبن والهشيم ويتعـرف مـرة أخرى ـ كم مرة؟ كم مرة؟ ـ على خشونة الخيـوط الجافـة المتربـة، ويتلمس ـ عبثاً بلا جدوى، بلا طائل ـ رقة بيضاء في بطن القدم المكـورة المسحوبـة، في فجوتهـا التحتية الحميمـة الناعمـة. ومن الـظلام يتقلب ثنايـا عجين آخـر متخثر وعـطن، والبت عـزيـزة زمبلك قـد نضت عنها فستـانها رمش العين النبيـذي وألقتـه عنهـا بسرعة وبلا اهتمام في حركة آلية، كما تفعل الفـلاحات، وارتمت على الأرض، تريـد أن تخلص وتفرغ من الأمـر من غير عـطلة، ووضعت الورقة أم خمسـة شلن في مخبئها بـين ثدييهـا الممتلئين، ورفضت أن تخلعه. زفرات الخيل النائمـة، فجأة، تـطس الرذاذ على التبن. والذيول تخبط صفحات الكفلين في توفز، تهش شيئاً في حلم الليل، وخيشة الفرش الخشنة تتلقى العجينـة المسكوبـة على الأرض وطوايا اللحم ما زالت عالقة بها رائحة البـودرة التي تفـرش بها كـل إمتدادات جسمهـا كل ليلة قبـل الـرقص. طنـين الهوام والبعوض الصغـير تحت نار الكلوب الـوحشي النهم. وقد تضرجت، وزوقت كل بضاعتها المتراكمة للعيون، يا قشطة، أيوه كـده يا مهلبيـة، أموت أنـا، نـظرة يـا حلو لإجـل النبي، وهي تـرقص، على وجههـا فتحة ابتسـامة منسيـة، وهـو يتقلب، من ورائهـا على الحلبـة، تحت ألف عين، وحـواليهـا، طـول الليـل يتـدحرج ويهـرّج، يستجدي الضحكـات النزرة، ويـطيّب لكل النِمَر، من الأسد للراقصة، من الكلاب للحصـان للبهلوانات،

بوجهه المرسوم بالأبيض والأحمر، ببكاء مصبوغ دائم، وبنطلون مهدل مرقع بكل الألوان، وضحكات الجمهور وهتافاته البذيئة، مع موسيقى الرقص المتراخية، كأنها هي أيضاً تؤدي واجباً بلا حماس. وهي تدفع بساقيها الثقيلتين، وترفع قدميها الحافيتين من على التراب، في غير اقتناع، تهتز وتنثني، رازحة، وهو يثب ويقع، يؤدي شغله، وجهها المتضرج المزوق فريسة للنور، بحواجبها الممسوحة المرسومة من جديد بخطوط سوداء وكحلها الثقيل، ما زال حول عينيها المفتوحتين الجامدتين في غبش الإصطبل بقع متقطعة من السواد. وبقع الأحمر المستديرة على وجهها تلمع، يا زمبلك، أوعى السوسته، شفاه مصبوغة لحيمة تحت النور القاسي، بلون قان كالدم اليانع يتجاوز شفتيها المفتوحتين إلى أطراف الفم الملوث بنضح الدم المتجمد، ولغت فيه وشبعت، وصدرها الضخم المترجرج يكاد يثب من بدلة الرقص الساتان الصفراء الفاقعة، وهي تلف بذراعيها المدمكتين، حول ظهرها، طرحتها الشفافة السوداء المشغولة بالترتر الأحمر، تخفي أطرافها الممزقة بين يديها، وقد علق بها تراب أبيض باهت. أصوات رشفات غليظة متلاحقة من ألواج البريمو من أكواب الشاي الأسود الزارد وقرقرة مياه الجوزة ودخان المعسل وهدير الكلام وضجيج السيرك والمولد معاً يكاد يغرق الموسيقى النائمة المتباطئة، وصبي البوفيه يقرقع بملعقته في كوب الشاي على الصينية. والعرق قد ساح بالكُحل وسال بالبودرة على ثدييها وجوانب خصرها المتين، يخط خطوطاً حمرية لامعة

على الجسد المكتنز المبذول لـلأعين والشفاه التي لا ترى ولا تجد فيه طعماً. وقد فرغ دورها وخرجت، حافية، قدماها تحتكان بالرمل والتراب، دون أن ينتبه أحد، والأضواء على الحلبة انطفأت، وجاء إليها وهي تنهج، وما زالت على وجهها ابتسامة دم منسيّ داكن، ولفّ حولها الروب الأحمر الرث دون تصفيق، فلم يستعدها أحد، والناس في عنفوان الليلة يقومون ويتحركون ويلغطون والجوزة والقهوة المضبوط والشاي الكشري تدور وتتلقفها الأيدي والشفاه في الاستراحة بين الألعاب، وأحس كتفيها تحت ذراعيه، وهو يحيطها بالروب، كأنه يحميها، ضئيل وراء ضخامتها الساكنة، ملطخ مثلها لا أحد ينظر إليه، وبينهما فهم مفاجىء دفيء، سرعان ما مضى، ولم يتكلم أحد، فهذا من ضمن الشغل، عليه أن يلبسها الروب وهو يهرج، لكنه الليلة صامت، قد أهمل شغله، ونظرت إليه نظرة واحدة، غريق يستغيث دون صوت، من عينيها المدفونتين في الكحل ولحم الجفنين المترهل والتجاعيد المكتنزة الملوثة بالألوان الندية بالعرق الدهني، ثم انطفأت النظرة وغاص الغريق. وهو الآن وراء الست أميرة في الاستراحة، الاستراحة ليست له، يدور ومعه صور باهتة الزرقة مطبوعة بالحجر بالحروف الثلث البهلوانة العالمية أميرة تروض سلطان الفرس العربي الأصيل، وفي يدها طبلة ورقّ تهزه فتجلجل صناجاته الصغيرة وفي يدها الأخرى صينية يلقي الناس فيها بالقروش التي ترن والأوراق المطبقة أو المفرودة المغضّنة يكاد يطير بها الهواء وابتسامتها متملكة

آمرة كأنما تقتضي حقاً وتتأدى دينا، والَمحافِظ الجلدية الصفراء تخرج من العبّ معلّقة بالدوبارة المتينة وتنفرد طية بعد طية ليستخرج منها الشلن الفضة أو القرش البرونز أو أم عشرة المطبقة أربع تطبيقات متوازنة، وهو يسلم صورة ويهش الأولاد المتدافعين عليه، وهي لا تكاد تنظر إلى الفلاحين أو الأفندية، بل تنتقل بخطى رشيقة، في المايوه الأبيض اللامع المطرز بالترتر، وسط ركام الجلاليب والملاءات والقفاطين والبلاطي التيل الكالحة، ومن الناصحين من يقوم قبل أن تصل إليه، ومنهم من يتشاغل في حرج وعيناه لا تستقران على شيء، وهي تستند إلى الواح الخشب وترتقي السلالم المتأرجحة، حتى وصلت إلى العسكري الضخم المفتول، والشرائط الحمر على كمّه الأصفر، يجلس في البريمو، راكز الأركان، متين المنكبين، في عنفوان رجولةٍ مسيطرة وصولة لا يُخافِت بها، وهو لا يكاد يلقي إليها بنظرة ساخرة من علياء هيكله المحتشد بالقوة والغلواء، نظرة إعجاب صريحة فيها الدعوة والسخرية معاً، نظرة ثور قوي وذكي أيضاً، يعرف استجابة أنثاه المحتومة. درت حواليها أستبقها كأنما أدعوها أن تمر، فما في هذا البغل من جدوى. ولن يعطينا شيئاً، وقد فارت نفسي وأجهشت واعتمل في صدري الذعر واللجج معاً، ولكنها تلمس كمه بيدها، برقة، وتهز الرق، وعندما استرقت النظر إليها رأيت التواء فمها بحركة احتقار مدربة، كبنات مصر، حركة تحرش واستفزاز واستجابة، تستنفر وتتحدى، وتعد بمجرد التحدي. ومد يدَه البغل ببطء إلى تحت الأزرار النحاسية

اللامعة واستخرج قطعة بشلن، ورماها إلى الصينية، فرمت هي إليه بعينيها، وأحرقتني العينان. لذعة لهيب منبثقة بطول أحشائي وعرضها، شريط كاو أحسست جوفي يستشيط منه وتنسلخ منه مزعة متقدة بالنار. وقالت له، كبنات مصر، بهمس: مرسي، من أعماق عينين مثقلتين مضطرمتين، ومالت عليه ميلاً لا يكاد يحسه أحد، وإن كان فيه دفء غريب حميم، وهي التي لم تشكر أحداً غيره، مهما أعطاها، وطول الليل أتقلب وأدُور، في حلقات من الظلام والجنون لا تنتهي، ألف قطعة من نار مؤرثة الأوار لها حرقة لا تنطفىء، ويهجس في نفسي ويوغر صدري ألف خاطر مجنون عقيم يتحطم أمام صلابة صماء مسدودة، وبكيت كالأطفال، بحرقة بكاء الأطفال، بلا أمل في أن أحداً سوف يفهم أبداً، في استسلام كامل لنفضة الدموع، ولم أخجل، وفي أنفي وقلبي رائحة التراب الجاف. من أنا؟ لا شيء. لا أحتكم من خير الدنيا على شيء. صحيح أنني دائماً مفتح العينين، لسِن طلق اللسان، صوتي في الجلبة مشروخ مبحوح ولكنه أعلى الأصوات، ثم هأنا في الليل، معدم، عريان، يعوزني كل شيء. ولكن لا يعوزني أنني أحبها. هذه ثروتي، كنزي، لا شيء. عبيط وأبله. وحدي. ووحيد. أمام ثروات الخيل النابضة الجسيمة. وعظامي مكشوفة للهواء، مفكوكة، لا يربط بينها شيء. في مرة قالت لي: إشمعنى مع البت عزيزة زمبلك بتشتغل بقلب، ومعانا بتلف كده زي المسطول، وبتشتغل من غير نفس، بطّل بقي وساخة يا بن

الكلب، ووجدت نفسي أبتسم من ورائها وفي داخلي عربدة مكتومة من الفرح، وحس سعيد أن عندي شيئاً له قيمة تطلبه، وتفتقده، تظن أنها تفتقده. مَنْ هذا الذي يئن من أعماق أحشائه، كأنه مضروب في قلبه بسكين، ضربة الموت. أنين غائر غريب، في الخواء. أنين لا يقُصد به شيء. لا ينادي محبة ولا عطفاً، لا يريد يداً تمتد إليه. أنين خافت، خاص، حميم، بينه وبين نفسه، عقيم يصدر من جوف الأرض، من تحت طبقات لا نهاية لغورها. أنين محبوس مكتوم لا يدعو شيئاً، لا يعرف شيئاً. والموسيقى تضج حول كل شيء، تهيىء الأرض لآخر لعبة. والولد الصغير يمدد جسمه على البساط، والبهلوانات، في شبابهم وقوتهم ومرحهم، يعابثون الولد ويجربون قوة احتماله، فسوف تتكوم عليه أثقال البهلوانات جميعاً، ساقاه الرفيعتان وبطنه المتهافت سوف تطيق عبء كل هذه الأجسام الفتية بالحياة والعضلات. أبو جلمبو صغير وبائس ورث، خرج من الماء، وسوف تقوم على صدفته الهشة أعمدة العظام المتوترة تعلو في بناء يتهدد دائماً بالسقوط، والقوقعة الرخوة تستميت في التمسك بالأرض، وتعدّ نفسها لمؤونة احتمال أثقال هذا البرج على القشرة الرقيقة القابلة، في كل لحظة، للانكسار. ولكن أخته تثب فجأة من فوقه، إلى الحبل المشدود، طفلة أنثى تتلوى على حافة الهاوية، بملابسها العريانة الصغيرة، فتائل الحبل وحدها ترفعها في الهواء، في الضوء الفسيح، وهي تنحني ببطء، وتميل، وتثب فجأة فإذا هي نائمة

مشـدودة على الحبـل، اعضاؤهـا المنهكـة منبسـطة ممـددة إلى آخـر حدود الامتداد عـلى الشريط المهتز الـرفيع، وثـدياهـا البرعميـان النابتان يرتفعان من منحدر الصدر النحيـل، نحو السـماء، وهي في حركة تمـددها عـلى الحبل تتلوى، وتلتصق، وتتـطلب، كأنما تمتص من هذا الشريان الملفـوف عصارة البقـاء، تنزح عنـه آخر استنفـادات الحب والماء النـزر الذي يـظمأ إليـه عودهـا الأخضر الخام الغليظ الملمس، ثم يدق الطبل دقاته المتـلاحقة، ويتقـاطر التصفيق في غير حماسة، في تردد وانتظار. ويُعَدّ المشهد المضحك الأخـير وهو يسرع فجـأة فيشد البسـاط الناصـل القذر من تحت الولد، ويقفز الطفل فيعطيه صفعته المعتادة، ثم يعود فيرتمي على قاع الأرض، ويعلو صخب الناس وعجيـج الموسيقى، والنـاس قد حميت دماؤهم من لغط المولد وسورة المعسل والشـاي وامتلاء الفم بعجين الحمص وطعم الحلاوة الحاد، بالسمسم والسوداني. وصرخات باعة الكبدة ولحمة الراس والبمبـار من وراء القماش، كل واشبع واقرأ الفاتحة للسلطان، دويّ أمواج المـولد المتـلاطمة في خـارج خيمة السـيرك، مـع هينمـة حلقـات الـذكـر المتـمايلة ولهاثها، ومزامير المواويل ودفوف المداحين التي نشطت ولجت بهـا نشـوة جـامحـة، ورقصـات الغـوازي قـد امتـلأت بهـا الإيـدي والعيون، وفاضت، وهمهمة نيران المشاعل على عربات العرائس الملونـة بأجنحتهـا الورقيـة المفضضة كفـراشات مـزوقة حجـريـة العينيـن، مستديـرة ببطونها الـلامعة من السكـر الأحمر، ودقـات البمب وخبـطات ألعاب الحـديد، في حميـا آخر الليـل التي تكاد

تصل إلى ذروتها، ودوار الدخان قد اتصلت حلقته. وسوف تنطفىء الأنوار قريباً والجذوات الملتهبة في حلوق الفخار التي تفح بدخان المعسل، وتمهد قرقرة المياه المحبوسة المضطربة، وتخبو المشاعل على عربات الترمس والحمص والبلح، وتغدو رماداً خشناً لا يحيا. يقظة متوترة أخيرة تجتاح كل شيء، انفعال متوهج، وتطلّب حميم قلق مشعوف الأصابع لا يقع على شيء ولا يمسك بشيء. والولد الصغير يمهد لجسمه الناحل نومته المشدودة على الأرض، يحفر بصفحتي كتفيه مستقراً وطيداً للأثقال التي سوف تتركز عليها، ويتلمس الأرض تلمساً وثيقاً مدعوكاً، يمتح منها معيناً ضنيناً من قوة مدفونة، ويدفع نفسه، متمدداً، متوتراً، مغروزاً على التربة الصلبة التي سوف تصد عنه الانهيار، وتتلقى وطأة البنيان المشيد المقام على عظمه، في الهواء. والأجسام تتراكب فجأة فوق هذه القاعدة التي تبدو هشة رقيقة، الصدور مبسوطة ممتلئة الأشرعة تقاوم الزلزال، واندفاعة الحياة صاعدة نحو السماء، يهددها خطر لا ينزاح. تَطوّع استحالة، وتتفطر أمامها النفس جزعاً. ودق الطبول ينصب الآن في انهمار حاد سريع، والسيقان والأذرع الأنثوية تمتد مفتولة وناعمة وعضلة بين خشونة هياكل الرجال وعظامهم الوثيقة، الأعضاء كلها متلامسة في نقط محسوبة متماسكة، تمتد، وتستمد توازنها من قشرة رفيعة متوترة ملتصقة بالأرض، تُصعِّد أنفاساً لاهثة محكومة، تنمو منها سيقان وأذرع وأطراف مهتزة ممدودة متخلعة مزعزعة وثابتة معاً، كحيوان واحد نابض قد تخلق فجأة، في

لحظة واحدة، ويقوم منتصراً، في الهواء. لحظة واحدة، من الرشاقة، والخفة، والاكتمال. مجرد لحظة هاربة، من الثبات المتطاير الهفهاف، يحلقِ منتصباً، ناهضاً على أعمدته الهشة القوام الراسية الجذوع. ريش نسر واحد مبسوط الجناحين، يقف، مشدوداً في أعالي أطباق السماء. ثم يتضعضع، ويتقلقل، من علوه، وتتخلع أوصاله، وينهضم. وينهار متهاوياً في زلزلة انقلابات متفجرة وشظايا مفتتة تستدير في كل ناحية كأنها قطع مكسورة منفلتة من آلة هشة انتسف محورها وانحطم، والطبول تصرخ صرختها النهائية مع صفقة النحاس المدوية المرتعشة الأخيرة، وهو يتقلب على جنبه، وجهها ينحني عليه، مضرّجاً لامعاً من العرق، مشرقاً باهراً كقرص الشمس، عين لا تعرفه، وجه لا صلة له به، صامتاً في بهرة الوحشة المتوهجة، لا رسالة فيه، لا يقول شيئاً. دهمه الوجه، في لحظة خارج الزمن، وأمسك به، حبه القديم يعصر قلبه حتى الجفاف ولا ينتهي أبداً تقطُّرهُ.

تدلى وجهه المعفر الملطخ بالأبيض والأحمر نحو التراب، كرأس معلق أمام دكان من دكاكين الجزارين، ساقط إلى أسفل، مرشوق بخطاف حديدي أسود، مفتوح العينين. وجه غاض منه كل نداء، لم ينفتح على حرارة ما. وقد طويت عظامه الرقيقة، مهدودة، على نفسها. ليست بحاجة إلى شيء. وهم يدخلونه إلى الإصطبل، إلى دفء الظلمة، إلى الحنايا الوثيرة من عجين الأرض الغنية، وينفضّون من حوله، وأصوات صغيرة تتنادى، بحثاً عن نجدة لا جدوى فيها، لن تجيء..

جرح مفتوح

النافذة مفتوحة على بحر الليل المضطرب، وهواء الصعيد الجاف له موسيقاه، ومن الداخل تأتيه رائحة الطلاء على الجدران الجديدة، تحترق من الحر. وهو لا يكاد يتبين قامات الرجال، كالأعمدة، أكتافهم حجرية، تحت ثيابهم الفضفاضة، كأنهم ليسوا هناك، في ظلام الشارع الضيق، في البعد الغائر العميق. بِرَك النور مِن الفوانيس، آسنة، تطفو عليها سحابات الهاموش الليلي وهي تموج، من غير صوت.

القبة العريضة صدر ممتلىء بشهيق محبوس، لا ينفرج أبداً عن زفير، وقد انعقدت عليها طبقات مترسبة في نقش مطموس المعنى. والسقف الواطىء المتين يقطعه ضلع مكسور التأم بالتراب القديم، ويصعد منه البرج المربع القصير، تأتي السماء الصلبة من ورائه، وتخترقه، وتثبت فيه، مثقوبة بإبر مشعة لا عداد لها، بين الجوانب الراسخة السميكة. جرم الجرس الضخم المعلق، أخرس ملجماً، يُثقِل البناء الجاثم، تحت، في وسط ربوة الأرض المنحدرة، مدفونة فيها درجات السلم

الرخامي الناعمة المدورة الحواف يتخايل له وضحها الباهت، من عالم سفلي.

وهو يستدير إليها جالسة في النور الأزرق الناصع الذي يتقد، مدلى من الحبل الأبيض الرفيع المضفور. ساكتة، محنية رأسها، شعرها جدائل كتان سوداء كثيفة، يفور تحت الطرحة التي علق بسوادها التراب. ساقاها، حتى القدمين، تحت الجلابية الضافية، ممتدتان إلى جانبها، هيكل ساقط بين حقول الكليم الصوفي الخشن النبات.

ـ أجِيَّه. . أجِيَّه.

يربطها هذا الدم الواحد الرازح الوطأة، وهذه العشرة فدادين من الأرض في حضن صخور الجبل.

كانت خطواتها، طول عمره، حذو خطواته. قرينته، يحسها معه ولو كانت غائبة، يحس وقع نظراتها عليه، صابرة مطيعة، الأخت التي لا عوض عنها أبداً، معه في كل مكان.

ـ اسم الله عليك، وعلى أختك.

كان صوت أمه يجيئه، ملهوفاً، يقيله من عثرته، عندما يقع على العتبة الرخامية الممسوحة.

ـ أنت الآن أبي، وأمي، وأخي معاً. . . قم الآن كل لقمة. . قم، تنام وتستريح سحابة الليل، حتى يصبح الصباح.

كان مكسوراً، خاوياً، في آخر الليل. فقد كل ماء الحياة. عيناه حجريتان نضبت عنهما كل عصارة. في عينيه الحفرة الطينية

التي أسقط إليها النعش. وما زال صوت التراب، وهو يسقط على الخشب، يغص له حلقه ـ ارتياح آخر الأعمدة في حضن الأرض ـ وكان يغالب إجهاش الشهيق المكتوم. .

ـ نام يا خوي. . يا خوي! يا بوي! يا بوي. . !

صرخة اليتم الكاوية التي لا يندمل جرحها أبداً. لقد انقضى آخر يوم من مجدها.

ماذا حدث الآن؟ ماذا يحدث؟ كيف يطيق مرآها؟ كيف تثبت عيناه بهذا الوجه الصغير الرقراق الذي تخفي نصفه الطرحة السوداء، ولا تبرحان؟ ولا يستطيع أن يحول بصره عن هذه القامة الناضجة العذراء تنسدل الجلابية على ثمرتيها الراسختين، لهما نداء آمر النبرة، فيها ثبات لدن، بقوته الخاصة، وتحديه، بمطالبته الخاصة التي لا يمكن أن تهدر.

يدها الأخرى، بأصابع طويلة عظمية، تمسك بقماش الطرحة الرقيق على صفحة وجهها. عينان تنظران إليه، موجتين هادئتين، من وراء كل الزمن.

قدماها الحافيتان لا يكاد يند صوت عن وقعهما الرخص، على البلاط الممسوح في الطرقة، وفي يدها الشاي، موجته الصغيرة وراء الضفاف الشفافة تهتز على قاعدة سميكة مدورة من الزجاج.

وهو يرد سماء الليل بيده، خارج النافذة، كل الوحوش الآن في الخارج، محبوسة. ويهتز مصباح النور العاري لصوت

الاصطفاق المكتوم. هما الآن في سجن جديد مضيء، والعمارة العالية كلها تحتها برج هش من الطوب والإسمنت والبلاط، تصطرع في قفصه العلوي حمامتان.

وهو يضع كوب الشاي على زجاج الكومودينو المصقول الذي يبرق في النور، ويشدها إليه، سلسة، منقادة، لا تكاد تعترض:

ـ لا يا سيدي.. لا يا سيدي..

ويدفعها بجانبه على السرير، وما زالت الملاءة البيضاء المفروشة تشع بوهج النهار.

كانت مع أبيه من قبل. خدمتهم كلهم. وعى لنفسه وهو يراها، كما هي، لم تتغير، الأيام ترتفع وتنحسر وهي نفسها أجيَّه. هذا الوجه البني المحروق، بعينيه المخطوطتين بالكحل الطويل، سوادهما عميق، صموت، ومتسائل، صورة مدفونة بين صفحات الكتاب القديم الذي كان يقلّب رموزه في طفولته، والأنف الأقنى الصخري، ناعماً وحساساً مع ذلك. قالوا أنها كانت عند جده، وكانت أيضاً هناك عند آباء جده، من أيام جده السابع القديم، ذلك الذي جاء، لا يدري أحد من أين، ليستقر هنا، ويشتري الأرض، رملية مالحة هنا، وسوداء غمِقة هناك. جففها، وغطاها بجسده وعرقه، حتى اخضرت بين يديه، وامتدت إلى النيل. لم يبق منها الآن إلا العشرة فدن في حضن الجبل.

وكان يستيقظ في الليل فزعاً يصرخ من حلم، فيرى وجهها،

هـو نفسه، وديعـاً ساجيـاً، في نور مصبـاح الجاز تحمله بيـدها، وتمسح العرق عن جبهته باليد الأخرى، نـور يأتيـه في الظلمـة، بـاهراً كـالنجدة، فينـام ودفـء صدرهـا يطرد الاشبـاح عنه حتى مجيء النهار.

وفي ليل طفولته كان يعرف أن دم الفراخ المـذبوحـة، والبط، والحمام الصريع قد ينبجس ويرش رخام عتبة البـاب، فلن تعود تجري وتنق وتلقط الحب في الحوش، تحت الزير، كان يعرف أن القطة التي يجدها في الصبح مقلوبة على ظهرها، منتفخة، في تراب الشارع، لن تعود لتموء، وتسحره، قبل أن ينام. وكـان يخاف أن يموت أبوه، ويخاف أن يأتوا ليرفعـوا إخوتـه من فوق الـتراب، لا يتحـركون، فـلا يعودون ليلعبـوا معه أبـداً. ثم ينسى ذلـك كله سريعـاً. وكان يعـرف أيضـاً أن أجيّـة لن تمـوت، لا تمـوت. ولا ينسى. كـان في دفينة حســه مكان لا نسيـان فيه، فيـه أمن معتم صاف وراحة نهائية، كأنه يلعب وحده تحت السريـر في مكان لا يصل إليه غريب.

سـاقاهـا عمـودان من حجـر أسمـر دافيء، منحـوتتـان. وفي الحجـر الوثـير شرايين دقيقـة زرقاء، نبضهـا يرتعش، لا يكـاد، تحت يـديـه. في أصـابعـه حنـان ملهـوف، وشفتـاه تتمـرغـان في اللدونة المتماسكة، ربوات ترتفع إلى غيـطان الجسد الممتـدة حتى الأفق. ويــده تـدور بــالخصر الصغـير الهضيم، تحت القميص السـاتان الأخضر اليـانع، تحـدس هيكل الأضـلاع القويـة تحت النعومة. الخضرة في نسيج القماش المـرفوع عـلى صدرهـا، ينبثق

منها النوار والأزهار، في خطوط متقاربة، ومستأنسة، وشامخة، وعصية. عيناه غارقتان في أمواج الزرع، حتى مدى البصر. والهواء يحمل إليه رائحة الماء الذي يجري تحت هذه الأرض، رائحة تراب مرويّ، حريفة، ومنعشة.

وفي كشف سريع خاطف تتبدى له امتدادات عارية، ملساء، على الجنبين، يحتضنهما. بل يحتضن جانبي العالم كله. العالم راقد بين ذراعيه اللتين تضمان كنزاً شاسعاً مستحيلاً، بربواته ووهداته الطرية. بين ذراعيه صحراوات مقفرة خاوية، لينة، ومشدودة، ومتموجة، فوق صخور العظام، ملاستها تحت أصابعه، ذرات دقيقة مصحونة جففتها وسحقتها شمسُ رغبةٍ لا تنطفىء، وليال ساطعة لا نهاية لها، من الانتظار والوحشة.

وهو يشق القميص اللامع الساتان، بعنف.

ويده ترتفع إلى الجرح المشقق المتشعب الخطوط. عنكبوت مدموغ بخيوطه المتفرعة السوداء، مكوية. عروق حجرية غائرة في اللدونة المدورة السمراء.

كانت الصرخات الثاقبة تنوح في خواء السماء، متتالية طويلة، تنادي وتستنجد، والهواء قد خف فجأة، وتخلخل. والأصداء تتردد، وتتضخم، بين الشوارع الضيقة وجدران الحجر والطين القديم. الليل كله يتدفق وينزف في هذه الصرخات، حاشداً بنذير غامض يدق على أبواب القلب. ثم جاء الصمت، وسقط كاملاً، مسدوداً. حتى لقد كان يسمع له

صوتاً، في مجرى دمائه، في موج مسارها الذي لا يتوقف.

وكانوا قد خرجوا من البيت، وراءه، على خطوتين منه، أولاد أعمامه، تاوفيلس، وجيصر، ومينا، خطواتهم تتباعد وتتقارب، وعلى أكتافهم البنادق في العتمة، جامدين لا يهتزون في مسيرتهم، بإرادةٍ لم يعد بوسع شيء أن يوقفها. ليس في وجوههم إلا الجفاف.

كان الخبر قد جاءهم في أول الليل: أسرعْ، أجية سقطت مصابة في الغيط. وصرخت النساء، ثم صمتن. قالوا إنها بخير، ولكن حسه أنذره أنهم يدارون عنه، قالوا جريحة فقط وإن لم تستطع العودة للبيت، ولكن حسه أنذره أن الجراح لم تعد من تلك التي يُستدعى لها الطبيب، قالوا جاءتها النداهة وطلبت ماء، أو الذئاب، لا ندري، أو لعلهم عربان الجبل، ووثبت عليها، في عودتها إلى الخص، في آخر العشرة فِدْن، ولكن حسه أنذره أنه هو الذي اغتالها، وأسقطها، قالت له في الصبح أنها ستقضي اليوم في الغيط، وتزور أهلها، وتسأل عنهم، عيب يا خوي أن تمر السنة من العيد للعيد ولا نحمل لهم هدية، هؤلاء ناسنا وأقرباؤنا، والحريم ليس بوسعها أن تأتي إلينا هنا في البلد، حرام، وأنا أشتاق إلى مجلسهم والسؤال عنهم، أما الأولاد فيقضون اليوم عند أخوالهم، والأكل جاهز، والعيش طري، خَبَزْنا البارحة، ولن أغيب عن البيت إلا سحابة اليوم، وليس للمرأة أن تغيب عن زوجها، صحيح، ولكنها سحابة يوم وأعود. ولم أكن راضياً، كنت أحس النذير، لكني

سكت، سكت، في جبن، كان سكوتي عن خوف أيضاً، وتعلل بأكاذيب هشة، أعرف في صميمي أنها أكاذيب هشة، مهما بدت مقْنِعة: ليس هناك من بأس، هذه العصابات قد انقطعت عن الإغارة على العمار منذ زمن بعيد، وانصلح حالها، والذئاب؟ أين الذئاب؟ لم يعد في الجبل ذئاب تخيف أحداً، وهم هناك قد قطعوا دابرها، ويستطيعون القضاء عليها بضربة فأس واحدة، أو ضربة من شمروخ، وها هي ذي الآن قد سقطت، هل ماتت؟ ولم تجد نجدة؟ لم أكن هناك، كانت وحدها.

ـ أجيَّة.. أجيَّة..

لم يرد عليه أحد.

كانت أجسام الفوانيس واقفة، خضراء صدئة ممشوقة في الليل، تُقبل عليهم وهم يسيرون في الشوارع المتعرجة، تلقى النور على بيوت الخشب البغدادي، على النوافذ المصنوعة من ضلفة واحدة، مصمتة ومشققة، على عروق التبن وآثار خطوط الأصابع البارزة في الجدران الطينية، على أكوام التراب وريش الطيور ونفاياتها الجافة، على الأوراق القديمة الساقطة على الأرض لا تتحرك، كأنما لا وزن لها.

كانوا قد تركوا حدود البلد. وكانوا يشقون الغيطان بين عيدان الذرة الطويلة الخشنة التي يهب عليها هواء الليل فيسقط عنها حفيف مثقل بالتراب، وكان صوت المياه يأتيهم من الظلام، تنسرب وتخرخر في القنوات الضيقة الموحلة، شحيحة، صوت أنفاس صعبة في صدر عظمي شيخ، ولكنه عنيد.

كيف يمكن أن أتـركها؟ في دمي هي، في عـظامي، مجـدولـة بنسيـج لحمي، التراب الـذي في يـديهـا عـالق بجـدران قلبي. وجهي لا يعـرف له مـأوى إلا عـلى فخـذيهـا، وتحت ثـدييهـا. هنـاك، هنـاك فقط، عـلى أرض لحمهـا الــدمثة بيتي، في تلك الخصـوبة الكثيفـة الزهمـة. هناك تسقط عني مخـاوفي وعذابـاتي، وأجـد راحتي وأمني. وأجد عـذابات أخـرى في راحتي، ومخاوف أخرى في أمني. هذا كل مالي من راحة وأمان.

لنسج القميص وهو ينشقّ في السكـوت المطبق صـوتٌ كنفث الفحيح المفاجىء.

وهو يدير وجهها إليه، وقد سقطت الطرحة من على السرير، وتمـوجت وهي تتطايـر إلى الأرض ببطء مفروشـة تغـطي جـانب الشبشب المقدد المشقق الجلد على الكليم.

وندى من العرق الخفيف، يتفصـد قطرات دقيقـة، دقيقة، في زرقة النور البيضاء، يكشف عن منابت شعرها الغنى الأثيث على الجبهة المدورة السمـراء. وينهمر شعـرها، في حـريته الجـديدة، أمواجاً وفيرة سوداء، على ملاءة السرير.

وهو يرفع وجهها النقي من على السرير، ويـديره إليـه ببطء، وهي لا تقاومه، طيعة، عيناها مفتوحتان. ويده ترتفع إلى الخـد الممـزق من تحت العينين إلى عـظمـة الـذقن، بجلده المشـدود، مجعداً، ضامراً، متقبضاً. شوهته ندوب كالشعيرات. متعرجـة. جافة. تسطع بينها، فجأة، مساحات صغيرة نضرة، رائقة بريئـة

من كـل شائبـة، في سمرتهـا الحية الغضـة المنعشـة، وسط آثـار أرجل عنكبوت الجراح القديمة التي التأمت على شبكات من نغْل دقيق صلب ومتجمد.

الجدران ساطعة خضراء ملساء.

وهو يغطي خدها براحة يده المشدودة بحركة مفاجئة قـاسية، يحس قلبـــه يتقبض من حنـان لا يـــطاق، والأنفـاس تنحبس في حلقه، وعيناه، على الرغم منه تغرورقان.

عنـدما خـرجوا من آخـر الغيطان، كـان الرجـال سـاكتـين، جالسين خـارج الخص، أمام المسـاحة الضيقـة التي تتعثر القـدم فيها بالحصى والشقاف، ويختلط فيها الـرمل بـالتراب، حتى تـأتي الأحجار الناتئـة الهشة والصخـور التي ترتفـع إلى صدر الجبـل. ومن خلال فتحة الباب، كانت الفتائل المشتعلة تـدخن في كيزان المصابيح القديمة السـوداء بجدرانها الصـدئة الـدهنية، وتهـتز في الجـاز العكر الثقيـل، وتلقى أضواء وظـلالاً متراوحـة لهـا ذيـول وتعرجات على الساحة الرملية.

وكانت لمة النساء متحلقة في الداخل حول بذرة مـوضوعـة في وسـطهـا. مـلابسهن سـوداء، والـطرح سـاقـطة عـلى الأكتـاف العظمية. وكانت تأتيـه من بعيد أصـوات لغط الكلام الحنـون، وثرثرة المواساة والتهوين.

كـانت حمرة النـور تتوهـج له من بعيـد، داخـل الخص، من مصبـاح الجاز الـزجاجي الـوحيد المشرق وسط فتـائـل الكيـزان

الصفيح. بؤرة تتضرج وسط الخلاء تحت الجبل. آخر عيدان الذرة في الغيط، محلولة الشعر، تهتز في حرارة جنازة مظلمة، من غير صراخ. ضلوع الجبل وترائب الصخر المدرَّجة صاعدة، متربصة، متهددة، نحو سماء قاتمة الزرقة، قاحلة حادة الجوانب.

هب الرجال من جلستهم المرهقة على الرمل والتراب واقفين عند مقدم الموكب الصغير، وانفرجت حلقة النساء وابتعدن يلتصقن بالحيطان الطينية في داخل الخص الضيق المزدحم بأقفاص وبلاليص وشيلان وحزم الحطب وأقراص الجلة الجافة وسلال البصل والقدور المدورة السوداء. طيور ليلية داكنة تهرب إلى الجدران، وأجنحتها ترفرف وتصطفق، أصواتها تهبط إلى صمت قلق، وعيونها لامعة، بعد آخر دفقات الزقزقة والنقيق.

كانت عيناها واسعتين، سوداوين، في النور المحمر، بهما نظرة ثابتة حارة. وكانت ساقطة، في هدوء كأنه الراحة، على بطانية في لون البن المحروق، مطوية فوق الحصيرة الرثة. وكانت تخفي نصف وجهها بالشال الأزرق الداكن الزرقة الذي ينتهي بشراريب مليئة دسمة بخيوط الحرير، تسقط على صدرها. انحنى، وأزاح الشال. كان الدم المغسول بمياه عكرة قد بقيت منه آثار باهتة مختلطة بخيوط متقطعة من التراب، على جانب الوجه الصافي. كان أنفها الأشم متوتراً، وشفتاها الرقيقتان لونهما أبيض في النور، مزمومتين على سر لن تبوحا به أبداً، وفستانها الأسود ممزق، منهوش، وقد تصلبت مزق النسيج

بالدم المتخثر اليابس. تتخايل من بينها أطراف مشعثة من قميصها اللامع ولمحات ندوب جراح طويلة مشروخة في اللحم المكدوم الأسمر الغض، على الصدر الناهد، وقد نفرت على ربوته تورمات زرقاء مفاجئة، مشقوقة في وسطها بخطوط الحمرة الداكنة.

كانوا قد تربصوا خلف الخص، وسقطوا عليها، على هذا الحصير. كانوا ثلاثة، أو أكثر. وكان النخل، في رأس الغيط، تحت الجبل، هو الشاهد الوحيد. كان المغرب أحمر، يزرقّ وينطفىء، ويتهدم وراء الصخور القليلة الارتفاع.

كانت الأذرع قد أحاطت بها، كثيرة، وثيقة صلبة، كالكلابات، وسقطت تحت هجمة السيقان. كانوا قد أسندوا بنادقهم إلى الحائط. وتمزقت تحت اندفاع صخري وحار. هل صرخت؟ أم كانت غائبة، نعم، وراضية.

كانت قد انقضّت مرة واحدة، متزاحمة بأجسامها القضيفة القوية. لم تكن تنبح، بل كان لأنفاسها كرير عميق خشن يتردد بين جنبات الصدر الأجوف وعيونها شعلات صلبة. كانت تدور حولها، وفوقها، تعانقها بسيقان مستدقة مشعثة الشعر، تحاصرها، وتنفذ إليها، وتفترش لحمها. كانت المخالب تخمش الأرض الطينية، تحفرها، في احتكاك له قشعريرة. وكانت تحس انسحاب المخالب، حادة باردة، على خدها وصدرها، صاعدة هابطة، تترك وراءها شبكة من حفر نارية دقيقة. كانت الأيدي

المتوترة المنهومة قد كشطت الجلد في خطوط متقاطعة، والأنياب الطويلة العاجية المبلولة تنزل مرة واحدة، وتغوص، والشدقان مسحوبان إلى الوراء، واللهاث الجاف يملأ هواء الخص برائحة الذئاب التي لا تطاق.

كان في الخص، في حرارة الليل، نفث ثقيل كأنه من رائحة عجين مكمور تحت البطاطين الثقيلة. رائحة أتته من ليالي طفولته، عندما كان يستيقظ فجأة دون سبب، وينادي: أمّه، أمّه.. وهي تعجن في صمت الليل، وصوت العجين الطري يصطفق. وكانت تقوم تغطي القصعة بالملاءات النظيفة، والبطاطين، ليتخمر حتى الصباح. وتأتي إليه، تسقيه، وتلف حوله الغطاء، وهو يرى في نور حلم مهتز وجهها الأسمر الساكن الصبور.

عيناها شاخصتان إليه، ورأسها على البطانية، وشعرها قد تشعثت منه خصلة سقطت على الحصيرة الصفراء، منابت الشعر مبلولة على جبينها المدور، والجرح يجري على خدها بأطرافه الرفيعة الكثيرة، ووجهها ما زال أزرق متورماً مرضوضاً، وشرايين حمراء مشرجة قد نزت على صفحة الجلد المغسولة.

العذراء وقد سقطت. أين كان ابنها؟

ـ قدر ومكتوب، ما باليد حيلة.

ـ كيف؟ كيف أمكن أن يحدث؟

ـ من يصدق؟

ـ كانت وحدها يا اختي. يا عيني.

ـ أمر الله ومشيئته.

ـ ما استطاعت أن تفعل شيئاً.

يا اختي. . يا ضناي.

ـ وماذا يجدي الكلام الآن؟ مشيئة الله.

ـ كيف جاءت هنا وحدها؟

ـ أختنا وحبيبتنا، كنا معها، قلبنا معها.

ـ كيف حدث إذن؟ كيف أمكن أن يحدث؟

ـ أجيّه. . أجيّه. . !

وهو يحتضنها بقوة، بين ذراعيه، في شبق الحنان، ويدفع وجهها إلى صدره، يخفي جرحها. شفتاها تحت ذراعه، تتلمسان صدره بقبلات صغيرة سريعة، والنور الأزرق الباهر كأنه يصفّر في أذنيه.

كانت المرأة قد نادت عليها، في أول الليل، وكان صوتها شاباً، ومبحوحاً. واقتربت من الخص. كان جلباب المرأة يسقط على هيكلها الخاسف الضاوي، أسود يختلط بظلمة الغيط من ورائها، وفي يدها عود حطب. وكانت وراءها ثلاث عنزات تثغو، وترفع رأسها إلى الجبل. كانت تسحب طرف جلبابها على الرمل، فيترك خطاً عريضاً. وكان الجبل رمادياً، وأعواد الذرة صامتة، متزاحمة ومتلاصقة، شاخصة في نقش مشعث حجري، عليه رواسب من التراب.

ومدت المرأة إليها يدها، في حركة دعاء واسترحام.

ـ عطشانة يا ستي.

وعنـدما اقـتربت منها، كـان وجهها نـاحلاً، تحت العصـابـة العـريضة الـداكنة الحمـرة التي تدور بجبهتهـا، وكانت شفتـاها ملحيتين موشـومتين بـالأخضر، والحلقة الصفـراء الكبيرة معلقـة بأنفها. وكانت وسوسة الحلي الصفيح على صـدرها، في الخلاء، مكتومة تحت الطرحة الثقيلة.

ـ عطشانة يا ستي، اسقيني لله.

بصوت لان له قلبها فجأة.

كيف نسيت؟ كيف تـركتها تقـترب؟ كـانت الإمـارات كلهـا هنـاك، وكم من مـرة سمعت الحكـايـات، في كـل القيعـان والبيوت؟

كان في عينيها تضرع القطة، وفي مشيتها المتمهلة على الرمـل إنسيـاب ناعم، وكـان كل شيء سـاكناً، لكنهـا تحس مـع ذلـك نبض الترقب حولها، ولهفة الترصد ولا تملك أن تغير شيئاً.

عـادت إلى الداخـل، ورفعت جالـوص الطين الـذي يغـطي البلاص، وغمست الكوز في مرآة الماء المصقـولة. كـان في بقبقة الماء وهو يلين، ويتكسر ويملأ الكوز، ما يريح الصدر، ويجعلهـا كـأنها تبتسم، مسحورة. وأخـرجت الكـوز مـائـلاً من الفـوهـة المدورة، وهو يشر بالماء البارد، واستدارت لتسقي المرأة.

احتضنتهـا النـداهـة، فجـأة، وأحـاطت بهـا، وسقط الكـوز يرتطم بالأرض الطينية الصلبة، وينسكب عـلى الحصير، لا يهتم به أحد، ووجدت نفسها في قبضة عناق خانق، رائحة الجلبـاب

الأسود المترب تكتم نفسها، وهيكل المرأة الجاف يضغط على جسمها، والحلي الصفيح مغروزة في صدرها، تؤلمها. واندلعت النار في وجهها. كانت المرأة تقبلها بشفتين من الشوك، قبلات حادة لاسعة. ثم انتزعت النسيج من على صدرها ومالت تقبلها في خشخشة الثياب السوداء الثقيلة التي التفّتْ بها من كل جانب، قبلات كاوية متلاحقة. وقد انبثقت نافورة من الألم تتفجر على ثديها، وتترك آثاراً رفيعة ثاقبة تنشعب كالبرق. وفتحت فمها تصرخ، فاغرة. هل صدر عنها صوت؟ هل حدث شيء؟ كان كل شيء حولها مقفراً، موحشاً، وليس هناك غيرها. وقد سقطت على الحصير. كانت تسمع الرجال يتنادون ويجرون من بعيد. قادمين إليها بنجدة فات أوانها، وكانت النساء تصرخ. لم تكن هناك أعرابية، ولا معيز، لا شيء، إلا عارها، جراح كأغصان النباتات الشوكية التي تنبث بين أحراش الحَلْفاء، وعلى حواف الترع المشققة من الجفاف. حزمة كاوية بها عقد والتواءات، مدببة الأطراف، متقاطعة ومتداخلة على صدرها وخدها.

وهو يغطيها بجسمه، كأنه يحميها من عريها، وعارها. يتلقى عنها، بعظامه وبعضلاته الموجعة، ثقل النور، في سجن الجدران اللامعة، ويدرأ عنها غيبوبة. يترك لها صدره تغمض عليه عينيها الجريحتين، وتلصق به خدها المحفور، وصدرها المنتهك. يدخل معها في منطقة حميمة خاصة بهما معاً، مغارة تتقطر فيها أشعة خافتة، في قلب صخر من النور الرازح.

قديستي المستباحة. كيف امتُهِنتِ؟ كيف امتُهِنّا؟

كان يقظاً في ظلام الغرفة والنور ينضح على خشب النافذة، وهي تنام إلى جانبه، وجهها فيه سلام، وفمها مفتوح في حلم منعزل لا صلة له به.

وكانت أطرافه كلها متوترة في قلق متوفز كهربي، ترتعش له الأعصاب، دون أن يملك أن يردها. تفجر العويل يملأ سماء البلدة عليه، في صراخ ملحاح ممتلىء الأحشاء بالخوف، تتردد له أصداء ثقيلة، بِرَك من الصوت، معدنية، تنداح من جوف جرس ضخم، وتتسع على صفحة الليل، تحمل تهديداً يحيط بكل شيء. وصمتت البلدة كلها، حبست أنفاسها، وسمع وشوشة النخيل في حوش الكنيسة، تحت.

وتقلبت أجيّة وتمتمت في نومها:

ـ من مات؟

وفي عتمة الغرفة رأى على السقف الأبيض صرصاراً داكن اللون، تتلاحق أرجله الرفيعة القوية، وهو يسير، في عمى، إلى وجهة مقصودة.

وانطلقت صفارة القطار من المحطة، متصلة، متطاولة، تجلجل في نَفَس واحد لا ينتهي، تبشر بالخلاص، والعجلات تقرقع منطلقة إلى بعيد، فوق الجسر، حتى تقلَّبَ الرعد الحديدي الليلي وانتهى إلى مطر خافت يتقاطر في فراغ الحقول.

وعاد الصمت موحشاً، يملأ السماء، تنفتح له في النفس فجوة

شاسعة بلا قرار. وهو وحده، بإزاء الصمت، يحس صَهْد الحرارة في وجهه، جسمه ينتفض بالعرق، وأطرافه ترتجف.

يا حبي، كيف امتهنوك؟ كيف امتُهِنتِ؟ كيف سقطت؟

أبكي، كالطفل.

كيف أبرأ؟ وتبرأين؟ بكاء السقوط يا حبي، والامتهان. كيف تجف الدموع؟

وفي الغد لم يكن يجرؤ على أن ينظر إلى عيون الرجال. سقطت، لكنها طاهرة. مغتصبة، بل داعرة. شهيدة، وضحية. - أجيّة.. أجيّة..

كانت عيون الرجال متباعدة، لا تبوح بشيء. كأنهم يخجلون مما سوف يرون فيها، وكان صوته هادئاً، محبوساً. كان الرجال قد انطوى كلٌ إلى وحدة داخلية. عزفت النفوس عن الالتقاء.

منذ متى جاء هذا البرد؟ وتفككت الظلمة؟ كان الرجال قد ناموا على الحصير، وبنادقهم إلى جوارهم على الأرض. التفوا بالجلاليب والشيلان والبطاطين. في الخص الطيني الضيق كثافة النوم، وأصوات الأنفاس الثقيلة المكتومة، لم يطلقها النوم من الحبس.

وعندما مد أطرافه أحس بالحياة تجري من جديد.

من يصدق أنه نام أيضاً، واستراح.

وعندما خرج، وتركهم نائمين، كأنما يودعهم في حنان لا ريّ له، كانت حقول الذرة في النور الأول للنهار، مبلولة من الندى،

ونـواصيها مثقلة محنيـة بالمـاء، لا تكاد تهـتز في رعشـة الـبرد التي سرعان ما انجابت. كان يحس الرمل يتصلب تحت قدميه ويجف من دكنة الطل المخضلة. تطايرت شبـورة الفجر سريعـاً، لم تبق منها إلا نفثات خفيفة بيضاء تتلوى وتذوب حول عيدان الذرة.

كان ذهنه خاوياً، صافياً، وقدماه تسيران به، وحـدهما، بـين الحصى والحجر، إلى طريق الجبل.

والسماء مشدودة، سخنة، والشمس قاسية في عينيه.

وتحت أظافره حبات رمل دقيق مغروز. وهو يضع وجهه عـلى خدها، يحس شقوقه الجافة، ونضرته، وقسوته.

أنت تقتلينني.

البرج القديم

وهو ينحني بوجهه على المدفأة، يرعى نارها، هبات الدخان الخفيفة ترتفع إليه، تصدم عينيه فجأة، وجفناه يضيقان، ولا يعود أمامه إلا شق تلعب ألسنة النيران الصغيرة فيه، تتولد، وتختفي. ويحس الدموع تتقطر في ركني عينيه. ثم يطير الهواء بالدخان بعيداً عنه، إلى ناحية الباب، ولا تبقى إلا رائحة الجاز الحريف على قطع الخشب التي غطاها تراب الاحتراق الرقيق وانهارت أطرافها وتفحمت في ألياف طولية هشة ما زالت متماسكة بين قطع الفحم المبلولة، رطيبة السواد، معدنية اللمعان، مرصوصة، ثمينة على التراب الضارب إلى البياض، الشديد النعومة، تتطاير منه على وجهه هبوات تتشتت للفور، كلما نفخ في النار.

كان جسم المدفأة الفخار، المدور، المحبب بين يديه، ما يزال بارداً.

مسح بظهر يده الهباء الناعم الماسخ الطعم الذي علق بشفتيه، ودعك يديه إحداهما بالأخرى، وهو يرجف رجفات سريعة خاطفة، ونظر إلى الباب الخشبي القديم، مفتوحاً، مائلاً

في عتمة المساء على العتبة الداكنة ببقع مياه يتشربها التراب الشبعان. نشق بعمق، يملأ صدره الذي أوشك أن ينضب. وعبّ من هواء أمشير اللاذع البرد، وهو يأتيه فتضطرب نيران المدفأة، وتَمُوج أطراف شجرة الجميز العجوز على الباب، وترتطم أغصانها المثقلة. نفثات الدخان الكثيف تتلاطم تحت فمه ـ نبيذاً مراً ثقيل المذاق ـ وتكاد تخنق اندفاعات النار التي تنبثق مع ذلك فجأة، هنا وهناك، رشيقة وحرة، من حيث لا يتوقع انفلاتها، من تحت مخابىء الفحم والخشب.

أمشير هذه السنة جاء مبكراً، بزعابيبه وترابه وهوائه القارص. رفع رأسه إلى سقف الحوش المفتوح على السماء. على الله تكون الجاموسة دفيانة في الزريبة. أمر عليها لما تمسك النار، وتحمى.

سماء الليل جدار من الرصاص مقلوب، وفي فتحاته الزرقاء الباهتة بين سواد السحاب، أجنحة الحدادي التي لم تأو بعد إلى أكنانها، امتدادات لا حراك بها، مبسوطة الريش، منحوتة، فرعونية، بدائية، ساذجة ولكنها ما زالت مهدِدّة، لها سطوة.

في ركبتيه وسمانتي ساقيه خدر طفيف من جلسته، مقعياً غير مستقر على الأرض، أمام المدفأة وأنفاسه متداركة لكنه وحده مع متعة خفيفة رقيقة، في العتمة الشاتية، واضطراب ريح أول المساء حواليه. يحس عظام صدره على رقتها غضة فتية تقبل التحدي، وجسمه الطويل المنحني، على ما يثقله من تعب طول النهار، لدناً مرناً تحت الجلابية الكستور الثقيلة، والبرد يلسع ما

بين ساقيه فجأة ويهرب سريعاً. وقدماه تحتكان بالأرض يحس التراب الخفيف على جانبيهما، وأصابعه تغوص في جلد الشبشب العتيق النحيل.

من ورائه صرخة مفاجئة من الفراخ، نقيقاً ثاقباً قصيراً مفزعاً، وفي لفتته للوراء صمتت الفراخ مرة واحدة، كما صرخت. لماذا اهتاجت هذه الفراخ فجأة؟ قلة عقل؟ شيء دخل الزريبة من بين أيدينا؟ لا يا شيخ.. والله ممكن، يا داهية لا تكون العرسة نطت من ع الحيط، أو يمكن فار من الفيران الجبلي الهربانة من الكوم الغربي، تعملها وحياة العدرا. تنسرق في المسا. من غير حس، وتعقر الكتاكيت، لا يا شيخ فال الله ولا فالك. قلة عقل منك أنت.. كان زمان الكفر كله صحي من زياط الفراخ والوز، والجاموسة نعّرت وحسها ملا البلد.

خيط من النور الأصفر المحمر يطعن العتمة طعنة مهتزة ولكن مثابرة متصلة، من باب المندرة الموارب، ثم يسقط على أرض المدخل، ويرتفع على جدار الطوب الأسود اليابس، وينحرف، ويتعرج، وينشعب عن زوايا حادة رخيصة متشابكة على عروق الخشب، المتفرعة بأعواد مشعثة عظمية الجفاف، على أشلاء أغصان شجرة الجميز المقطوعة للوقيد، ميتة، متساقطة الورق تخشخش في الهواء البارد، وعلى أعمدة صغيرة مهددة بالسقوط من أقراص الجلة، تتخايل كلها في شبه العتمة، تحت سماء تسطع زرقتها الأخيرة، خالية الآن، بين أكوام السحاب التي

تتقلب وتنساب، بسرعة وصمت، على السطوح الـواطئة النـاتئة الأطراف.

ثم لم يعـد هنا شيء إلا هـذا الجهد الممتـع المستغرق، شفتـاه وفمه هما كل جسمه، وهو ينفخ بانتظام وحذق، ويداري بيـديه على النار، من هنا وهناك، كأنها عشيقته، في خفـاءٍ، يحميها من هبات ريح أمشير المفاجئة، وفحماتها تحمر، ثم تبيضُ، في اتقـاد سـاطع، والخشب يقـرقع في احـتراق بهيج، ورائحـة الجـاز قـد اختفت أو كادت وحلت محلها رائحة سخونة الرماد النظيف.

كـان ينحدر الآن من ذروة اكتمـالٍ ما، وتحققٍ فـات وأعقبه تهدل وراحة واسترخـاء متعب فيـه بقية من تـوتر قليـل، والله لا راحـة في ليـل أو نهار، نشقى طـول النهـار في دفـاتـر الجمعيـة، وإيصـالات الفلاحـين وحسابـات التقـاوي ورصيـد السلفة عـلى المحصول وعهدة السـولار والجرارات وأقسـاط الإصـلاح وأوراق المهندس الزراعي، والميكانيكية، وخصـومات العجـز والكيماوي والمبيدات، وفوق هـذا كله وقبل هـذا كله طلبات البهـوات من العيلة الكبيرة، كله على دماغي أنا، ومن ورائنا وأمامنا وحوالينـا البـاشكاتب ورئيس الجمعيـة. أنا عـارف، عـارف أن الـدفـاتـر والأوراق فيها لعب، لكن أولاد الكلب لا يتركـون الدفـاتر عـلى بعض معي أبـداً، دائماً معهم بحجـة المراجعـة وطلبـات مصر، وتقفل عليها الخزانة، أنت عليك التقييد والجمع والطرح والنقل من إيصالات وفواتير ولا شيء آخر. فاهم؟ صحيح، ليس هناك ورقة بإمضائي، هو أنـا مجنون؟ ليس هـذا شغلي ولا مسؤوليتي

وأنـا مالي يـا عم. آه ياني. صرخـة ثاقبـة، لا عاقلة، قصـيرة، نهائية. أنة من بعيد، خدشت طـرف وعيه، لحـظة، وانقطعت. حمامة في الـبرج سقـطت عليهـا حـدأة. فـرخـة انقضت عليهـا عرسة. طفلة، فوق، أمام قسوة العالم الجديد، بقبضته الخشنة. صرخت صرختهـا قبل أن تمـوت. لم يسعفها شيء. لم ينجـدهـا أحد. صرخت، أطلقت في ليل اللامبالاة آخـر صيحة حيـاتها. حيـاتها. حـرام، حرام وحيـاة العدرا، يقـولون البـاشكاتب قنى عشرين فداناً، في بحـري بعد البحـر، الجربـوع الحرامي، أبـو إعـداديـة، من أين جـاءت الفـدادين العشرون؟ من السفّ والنهب، من الضحـك على دقن الإصـلاح، من دم الفلاحـين، ولاد الكلب، هـم أيضـاً ساكتـين، مغفلين، قال كتبـوا عـرايض قـال، ما الـذي يسكتهم؟ قال كـذب مسوى أحسن من صـدق منعكش، حسـابات سليمـة مية في الميـة، وأنـا أيضـاً حمـار، لا أعـرف أبـداً أن أضـع يـدي عـلى شيء. عصـابـة الله يخـرب بيـوتهم. . ويمكن غـير صحيـح؟ بعض الـظن إثم كـما يقـول إخواننا، ولكن أهناك دخان من غير نار؟ حتى في الليل لا يرحمنا الهَمّ. الله يسامحك يا ابا إرساني، أما كان يخرج من يدك أن توفر لنفسك، من أيام العز المتلتل، ثلاثة أربعة فدن، أو خمسة، بدل القيراطين العمى نطفح الكوتة لما نتحصل على إيجارها، وتترك لي كبشة أولاد وبنات أخوات أو كّلهم وأعـلّمهم وأكسيهم، يا خي كفـاية غلب المـدارس، وطلبات المـدارس، وسنتين ثـلاثة وأحمـل هم شوار البنات. وأنـت يابا إرسـاني: ربع الكـونياك كـل ليلتين

تلاتة، والمزة، البيض أبو ليمون، والكبدة وجوز الحمام، وعلبة البلمونت صحيحة.

لم يسمع نفسه وهو يضحك ضحكة خافتة مستمتعة، في غير سخط، بل بشيء من الإعجاب: هذه العظمة الناشفة القديمة، لا تنهد أبداً. أوشك على الثمانين، بل لا بد تجاوزها، وما زال أيضاً عفياً لا يدير رأسه ربع الكونياك ولو شربه وحده، وذهنه أصفى من قلم حسابات بكله وكليله، وحياة ستنا العدرا، يغلب بلد آبا إرساني، وعينه كالصقر، لا يفلت منها شيء.

همَّ واقفاً فجأة، وقد صمت ذهنه مرة واحدة. لكأنه نسي، أو لعله لم يوجد أبداً ـ همّ ولادة البنت، ومصاريفها، وخوف التهديد والقلق الذي يجفف قلبه. لكأنه عاد بريئاً، حراً، نقياً. خمس سنوات إلى الوراء، هل هي خمسة؟ أبداً، لن يغتسل أبداً من هذا التوجس، لن يخلص أبداً من هذه المواجهة مع زحمة المخاوف وضرورة الهجوم معاً. كأنه هناك وراء خمس سنين، وهو مع ذلك هنا، والآن، قبل أن يتزوج حنونة، وتلد، ثلاث مرات، بنت كل مرة. وتموت البنت. كل مرة، قبل الأسبوع. كأن يداً مسحت من ذهنه هذه السنوات كلها، بل سنوات العمر كله، كأنه لم تكن هناك سنوات مرت أو تمر، ثم انفكت حبسة ذهنه، وعادت الأصوات تملأه من جديد. وهز رأسه في دهشةٍ من نفسه نسيها للفور، وهو ينظر إلى الحائط المسدود في الدور الثاني، ويرتقي درجات السلم الترابية المتحدرة إلى الغرفة العلوية الكبيرة أمام البسطة على سقف الزريبة، مقفلة اتقاء

للبرد، شباكها المطل على الزقاق محكم السد بالخرق المحشورة بين الحائط وضلفة الخشب المتأرجحة أبداً، المسنودة بالعلب الصفيح والكراكيب والهدوم والحقاق، وزجاجة الزيت الراكد المدهنة، اللزجة الفوهة، برواسبه البيضاء الثقيلة في قعر الزجاجة تملأها حنونة على تفلها ولا تفرغها أبداً، كأنها تخشى، لو نظفتها، نضوبَ البركة. وجنبها زجاجات الخل والسبرتو معاً، كيف تميز بينها؟ كل منها فوهتها سوداء محشوة بقطعة ملفوفة مدكوكة من ورق الجرنال، الداكن الاحمرار. وقطعة المرآة المكسورة والفلاية الخشب وأنصاف الأمشاط البلاستيك والقمع الصفيح الصدىء. وقلبه يبتلّ من جديد من الشوق للدفء الذي طالما عرفه في هذه الغرفة، وتغرق أرضه أمواج التوق لجنون الانطلاق الحسي العارم، وأمواج الخوف أيضاً من مضض القلق والانتظار والانطفاء، وطعم التراب الكاسد الثقيل، والعجز أمام جفاف الحياة الصغيرة التي تذبل وتركد وتلتوي هامدة في الأقمطة واللفائف، كل مرة، يعود إليها يحملها، على ذراعيه، إلى تحت، إلى النعش الخشبي الصغير الأسود بصلبانه البيضاء.. يا رب.. يا رب.. ارحمها هذه المرة يا رب.. ارحمنا، كيريا لايسون.. يا رب ارحم.. ارحمنا.. ارحمنا.. دستة شمع نذر عليّ يا ستنا العدرا وآدي ندرك يا ست.. يا أم النور..

ـ احم.. يا ساتر.. يا ساتر.

ودقات عصا ثقيلة على تراب الأرض، من الخارج، تقترب

مع الصوت الأجش المجروح.

وفي نفس الوقت هرولة نرجس الصغيرة على السلالم، والباب ينفتح ونور مصباح الجاز «الشيخ علي»، يثب، ويتطاول، وينخسف فجأة يكاد ينطفيء في يدها، وأخته تهتف به هتفات خافتة ملهوفة، قدماها الحافيتان، السوداوان بعظامهما الرقيقة الصغيرة، على التراب.

ـ آبا فانوس.. المعلم جورجي.. المعلم جورجي جاي.

وفي نظرة حنو تعرفه البنت وتألفه، وتبتسم له عيناها الضيقتان بمكر، وفي صوته قشرة مكسورة من قسوة خادعة:

ـ طب يا بت يا مقصوفة الرقبة، مالك اتسَرَعْتِ ليه؟ إدخلي قولي لبنت خالتك حنونة تحضّر العشا. وشوفي آبا إرساني ينزل المندرة يا الله يا بت ياللا اعملي لك همة، وروحي اندهي البت المديوبة خضرة شو فيها متّاوية في أني داهية، همّي يا بت جاكي ديب..

مقصوفة الرقبة فرحانة لأنها تعرف أن الليلة التي يجيء فيها المعلم جورجي سينالها نصيب من الوَفَر، وهو يأتي إليها في جيبه بكرملة من عند الخواجا شنوده البقال، يدسها في يدها من وراء ظهرنا، وما زالت البنت تتوثب بالأفراح واللهفات الطفلية، في الابتدائي ما زالت، أما أخواتها الثلاث فقد انتهت طفولتهن، وهن لا يختلفن عن الفلاحين في شيء. وطافت بذهنه آمال قديمة مألوفة أن يصبحن كقريباتهن في دمنهور، أو إسكندرية،

ومـا زال يـراهنّ في مستقبـل غـامض: في بيت بـالمـاء والنــور، زوجات موظفين، رشيقات نظيفات. أخوتهن تخرجوا من الجامعـة دكاترة ومهندسين ومدرسين، متى يا رب أرتاح من همومهم جميعاً وأفـرغ لحالي ونفسي، لا أعـول همّ المدارس والأزواج، والأولاد الذين يخرجـون كل يـوم على وش الصبـح يسيرون للمـدرسة في الخطاطبة على أقدامهم، توفيراً للاشتراك، ويعـودون كل عصر، عشرة كيلومتر كل يـوم صباح مسـاء، ومع ذلـك ربنا يحـرسهم، ينجحون بمجاميع.

كـانت خضرة تنحني، بجسمهـا الفـارع القـوي اللدن، ثم ترتفع قامتها الطويلة من تحت الجلابية السوداء السـابغة المتربة، مشقوقة على الصدر، ويبدو من الشق طرف جلابيتها التحتانية، المغسولة الباهتة الـزرقة، ولحم صـدرها الأسمـر المتماسـك. وعلى رأسها خرقة القماش المبططة، على الطرحة، ترتفع فوقها الصينية النحاس الواسعـة، وعليها مـا فضل من العشـاء. تهتز الأطبـاق والأكـواب وتنزلق قليـلاً على الصينيـة ولكنها لا تـرتـطم بعضهـا بـالبعض، بـل تثبت في تـوازن. والـظهـر النسـائي الشـامـخ، منسرح، متـين الأسـار، من تحت الجـلابيـة التي تحف أطـرافهـا بالتراب من على القدمين الكبيرتـين الحافيتـين. وانكشف خشب الطبلية الصغيرة مسوداً رقيقاً، هزيلاً، عظم قديم في تُرْبـة، بعد أن أزيح عنها الغطاء المعدني الباذخ الصفرة بنحاسه العريق وبقع السمن اللامعة.

ورجعت خضرة بالصابون أبو ريحـة، والطشت عليـه الإبريق.

كانت يداه تنعمان برغوة الصابونة النافذة العطرة، وخبط الماء الأسمر ينسرب رقيقاً بارداً، جاءت به البنت، بلا شك من الأنجر الكبير تحت الزير، يُثْلِج حموةً في يديه ودمائه، ليست من هَبْو الكونياك ولا من حمو ذكر البط، بل هي وهج داخلي يشعل أحشاءه، ويحس معه ذكورته متطلبة، آمرة، متوترة، والبنت تنحني. وصدرها الوثير يتدحرج تحت الجلابية السوداء، ويندفق نهداها من فوق طرف القميص الناصل، ويملآن الشق الطولي الرفيع، في وفرة، وضغط، ويتخذان مرفأ خاصاً واستدارة خاصة، إذ يتضامّان معاً، تحت النور المحمّر، وهي تنحني تصب له الماء، وفي رائحتها يختلط نفح جسدها الحميم بطعم الحليب الطازج، ورائحة الجاموسة ودخان الجلة الدافئة الجديدة، والصابون، والزفَر السمين المطبوخ، في بخاره العبق، كلها نعومة، ومتانة، راسخة أيضاً، كل شيء فيها مدور، محكم اللدونة، ليس فيها ما يكشط الحس أو يهبش بالمخلب والمنقار الحاد، ولا قسوة العينين المفتوحتين الصاحيتين أبداً.

وعندما ذهبت للمرة الأخيرة، وعيناه تتبعان موسيقى الردفين بإيقاعهما الغني، البطيء، المليء، عايز حاجة يا معلم؟ طب تصبحوا على خير، بجي، فُتكّوا بعافية.. أحس جسمه يتمطى، بالرغم منه، مهدوداً وملآن، ما زال فيه توتر قليل يخبو، يحثُّ على الراحة لا على التوفز بالقلق والهجوم، وفي رأسه دوار الكونياك الخفيف، وما زال في زجاجة النُصّ بقية، ولكن عينيه صافيتان، مجلوتان، كل شيء يبدو له محدداً قاطعاً، في

ضوء أسطع قليلاً من المعتاد، أوضح قليلاً من المعتاد، كأنه ينظر من خلال عدسة مقربة جديدة: وجه المعلم جورجي المكتنز المترهل، بجلده المزرق، المنقور بآثار جدري قديم، وعينيه الجاحظتين المبقورتين، من غير نظارة، نيئتين، تدور المقلتان من غير رؤية، وتحسّ أنهما تتبعانك مع ذلك ترصدان كل حركة في داخل نفسك أيضاً، خففت الأُلفة القديمة بشاعة شكلها، لا يضع عليهما نظارة سوداء، ولا يريد، لكنهما الليلة تبدوان له كأنهما جديدتان عليه، في اقتحامهما وفجورهما، في بذاءة سافرة، وغريب منه أن يقبلها ـ هذه البذاءة ـ ويسلم بها، مع ذلك، هو والقرية كلها. لا صلة لذلك بأنه عريف الكنيسة وكبير الشماسين فيها ـ وحافظٌ لا تخونه الذاكرة أبداً للخولاجي كله ولألف ترنيمة بالقبطية والعربية معاً ـ وأنه هناك حيث كل شيء كبير وصغير، في الولادة والتنصير والقربان وجبانيوت الخطوبة وإكليل الزفاف وقداس الجناز، في رش الماء المقدس في البيت بعد الموت إراحةً للروح من عناء الانفصال، وعند تفريق الملبّسْ، وشرب المغات، في تسجيل عقود الإيجارات والبيوعات، وبعد جمع القطن، وفي كيل القمح، عند ذبح الوزة وعشار الجاموسة، في لعب الطاولة وعشرة البصرة، وعندما يأتي حكيم المركز أو ضابط النقطة، على السواء. لا. أبداً. هذه البذاءة العارية في عيني الرجل الصخريّتين المسدودتين وفي تلمظ شفتيه الجسيمتين الدهنيتين، في تعليقاته الصريحة المفتوحة ونكاته القبيحة المباشرة اللفظ، إنما هي شيء آخر يحس الجميع براحةٍ إليه وبمتعة خاصة

فيه، كأنها محرَّمة قليلاً ولكنها مسموح بها لأنها أساسية، متعة تفاجىء يديك وصدرك أحياناً وأنت تمسك عجل الجاموس اللباني الغض لتذبحه في العيد، أو عندما تقبض على استدارة امرأتك المليئة المقببة كالعجين الدفىء الخمران، تحت غطائه الثقيل، وتغوص في الليل.

كانت النظرة يحسها تثبته في مكانه، وكأنما تثقبه. منذ بضع لحظات بالفعل، أحس العينين الضيقتين العجوزين، يقظتين رغم العشاء الثقيل والكونياك كأنهما متربصتان، وجارحتان أيضاً، من تحت غطاء الحاجبين بشعرهما الأشيب المتنفش الحاد الشوك، وهو يخرج السيجارة من علبة البلمونت، بيديه السمراوين الشفافتين، عظام الأصابع الطويلة لا تهتز، ويمدها له، بصمت وشيء من تقطيب خفيف يعقد الحاجبين الكثين البيضاوين، كأنه يسمح له باقتراف الذنب أمامه، أي ذنب، كل ذنب، الآن فقط، فما كان الولد، مهما كبر، ليجرؤ أن يشعل سيجارة أو حتى يستأذن فيها، ولو بعد العشاء والشرب، إلا أن يأذن له آبا إرساني هذا الإذن غير المباشر، ولو اضطره الأمر، وحَبَك الكيف، تعلل بأية حجة، وخرج يشرب الدخان بعيداً عن نظرة أبيه الحادة.

انعقد الدخان حول مصباح الغاز النيكل الكبير الدائري المبطن، بزجاجته الرائقة الطويلة المستدقة العنق في طول، بعد انفلاتها من قبة الضوء المنتفخة حول شعلتها الساطعة. واستند الرجال الثلاثة إلى المخدات، وهناك من فوق، جلبة البنات

والأولاد، ومعهم خضرة بلا شك، في معركة العشاء البهيجة. وأخرج الشيخ أقراص الدومينو من تحت الشلتة، تحت كوعه. كانت المدفأة الفخار في الركن تتوقد بصمت ووهج، تبعث حرارة تشبع عظام الرجال في المندرة المنيرة المنعزلة المقفلة على نفسها، بطن مركب مضيئة في موج النيل الليلي.

ـ والله الدفا عفا يا ولاد.

ـ اي والله.. هابياك..

ـ دوش.. سمعت يا سيدي جاموسة الناظر عشرت النهارده..

ـ إيوه يا معلم.. وبيقولوا بنته كمان.. اتنين وستة..

ـ تلاتة واحد.. يا راجل اتقي الله.. وبعد هالك بجي..

ـ تاخذ كاس يا آبا إرساني.. كاس كمان يا معلم جورجي..

ألقى عليه أبوه نظرة أخرى خاطفة، ضربة مخلب من صقر، جاف، وهز رأسه بالإيجاب. وعلى الطرف الآخر من الشلتة، كانت الأصابع الغليظة المدربة، معوجة قليلاً في اكتظاظها باللحم، تتحسس أقراص الدومينو بسرعة، بين الإبهام والسبابة. وتضعها في مكانها، والذهن الذي ينز بالدهن والذكاء معاً يلتقط الرقم، ويحسبه، ثم تسحب الأصابع القرص التالي، في نفس اللحظة تقريباً، وتسنده في الصف الممتد على الشلتة المفروشة فوق الحصيرة. والصف يستطيل بسرعة، ويعوجّ، ويصنع زوايا حادة، والحسبة تكبر وتصل إلى نهايتها. وهو يرقب اللعبة وينشق دخانه يملأ به صدره المزدحم. كأس أخرى، وتغيم عيناه

قليلاً، وهذا الوضوح القاطع في الأشياء لم يعد يؤذيها. كأس أخرى، ويتمهل الإيقاع الوثير الممتلىء حتى لا تكاد تهتز موسيقى النهدين والردفين الناعمة، ويتعثر ذهنه قليلاً، ويغوص، من غير دفع خارجي، في ردغة مبلولة طيعة. يتوقف جريه في توتر السهم المنطلق المشدود، دون أن يصيب هدفاً. آبا إرساني يضع خاتمة حساب اللعبة، وقد كسبها مرة أخرى، فمهما كانت براعة المعلم جورجي وذكاء أصابعه ودربته المشهود بها في كل بيت، دائماً يكسبه آبا إرساني، ودائماً يعابثه في آخر اللعبة هو انت عايز تكسب كل حاجة يا جورجي يا خويا، فيضحك العريف ضحكته الجشاء، الغليظة، ويلتقط بين شفتيه السوداوين اللامعتين ولسانه حركةَ تلمُّظ كأنما هناك لذاذة متعات أخرى ومكاسب لا علاقة لها بالحساب، وما يزال يضحك ويهتز كرشه المدور في القفطان الحرير من تحت البالطو الصوف، اللهم اجعله خير يا ولاد، الله يجازيك يا آبا إرساني، خير يا سيدي، وانت يا سي فانوس اللي واخد عقلك.. خد يا سيدي، جبت لك ميه مصلية من عند أبونا، بركة من الكنيسة، خد يا خوي كل شيء بإرادته، عقبال ما نأكل ملبس الفرح.. في حياتك إن شاء الله يا معلم جورجي، خد يا خوي.. وفي عزك وعز آبا ارساني يا واد، إيه، حناخد زماننا وزمان غيرنا يا جورجي بس ربنا يخليهم، ويخلي لها أبوها، والله زمان يا ولاد، في صحتكم.. تتربى في عزك يا سي فانوس، اللي جاب لك يخليلك.. في حياتك يا آبا ارساني.

والأصابع الطويلة العجوز تقبض على الكأس المشعشع بالكونياك الأصهب، بلا اهتزاز، أظافرها القوية الصلبة بيضاء مصفرة من الدخان. عاج قديم في النور الأحمر.

ماذا نسميها؟ يا رب احفظها يا رب. ابقِ على حياتها. هذه المرة. كم مرة تولد وتموت؟ أوشك الأسبوع أن ينقضي. هل هو غداً أو بعد الغد سبوعها؟ هل سيكون هناك سبوع، ودقات الهون، ورش الملح، وهز الغربال بالحمص وحب العزيز. والقلة الحمراء بالشموع؟ أخذ السطوع الوضيء في ذهنه يخبو، وتنوشه غاشية غياباتٍ تمضي سراعاً، كأنه ينسى ثم يعود يتذكر. مختارة، صفية، وهيبة، جسم واحد صغير، مضغة رقيقة تصرخ، لما تكد تتحرك حتى تسقط ضاوية جافة، مكسورة. حِمْل ما أرقّه وما أهون ثقله، يحمله، كل مرة، كل مرة يا رب، على ذراعيه، إلى تحت. ويحمل الإثم والخطية، معه كل مرة. لم يغمر الجسم الصغير الهش أبداً في قلاية التنصير المملوءة بالماء المقدس، لم يصلّ عليه أبونا أبداً في الجبانة، على الطرف الغربي، هناك في الآخِر بعيداً عن بقية القبور، ليس له الحق، هذا الجسم الصغير المنبوذ الموؤود المنتهَك. ليس له الحق في شيء، الخلاص بعيد، في اليوم الأخير، بنته الواحدة الكثيرة لا مكان لها في الأرض المقدسة. ثلاثة ملائكة صغار، بجانب المسيح، ينتظرون أبداً الدهر، أزماناً لا نهاية لها، طوال قيام ملكوت الأرض، حتى تأتي الدينونة، ويأتيهم المسيح في اليوم الأخير. يحملهنّ بين ذراعيه، مسدود العينين، ويقبلهن بشفتيه

السـوداوين، يخلصهن للمرة الأخـيرة بجسمه المصلوب المـطعون القائم من بين الأمـوات، ويقول لهن ادخلن معي، إلى ملكـوت أبي، إلى بطن مركب مضيئة سابحة في السماء إلى أبد الآبـدين.

ولم يستطع يوم الأحد الماضي أن يوافق على أن ينصّر الصغيرة الجـديدة، ولا أن يعـطيها اسـماً، سوف يحتمـل ثقـل المخـاطـرة بالخطيـة مرة أخـرى، نعم. ورفض أن يأتي أبـونا ليصـلي ويرش كل شيء بالماء المقدس ليطرد الروح الشريـر من البيت، لو قبـل فإنما هـو بذلـك سوف يعـدها ـ هي أيضـاً ـ لمراسيم مـوتها، من جديد. لا. لا. تظل من غير تعميد. من غير اسم، كأنه يخفيها عن بصرٍ مترصد يتلمس أين هي. حتى ينقضي الأسبـوع. كأنـه يخدع أحداً مـا عن حقه الصارم القاسي، ويختبىء بطفلتـه بعيداً عن هاتين العينين. كأنها لم تولد بعد، مغلقاً عليهـا في لفائفهـا، في الغرفة. نعم.. ولكن معها أمها.. لا يستطيع أبداً أن يحسن إخفاءها عن كـل عين.. عن كـل خطر.. معهـا أمها.. معهـا أمها..

زجاجة الماء المصلى عليه، بين يديه، فيها تهديد ما. شفـافة، وثقيلة، ثقيلة لا تحتملهـا أصـابعـه. يكـاد يفلتهـا فتنكسر عـلى الأرض، ويتشبث بهـا مع ذلـك بخوف وأمـل. يا رب، اتـركها لنا، انسها يا رب، اتركها لنا، هذه المرة، يـا ستنا العـدرا.. يا أم الطفل، شفاعتك يا رحيمة.

ـ رحمة.. رحمة، نسميها رحمة، على اسمك يـا أم المراحم يـا عـدرا..

مكتومة، نـدت عن نور مضـطرب يبرق وينـطفىء في ذهنه، لكن عيني أبيه كانتا حجرين، صلبين، ثابتين عليه، لا تطرفان.

ـ امتى تعـزمنا عـلى جوزين حمـام يـا سي فـانـوس؟ وَالاّ بس الحمام غِيّة يعني، واللا يعني الحمام غية؟

وابتسم، على الرغم منـه، بينما كـان الوجـه الأسمر المجـدور اللحيم يتهـدل وينكسر مرة أخـرى في ضحكة السُكْـر المهـدودة المتماوجة. في الضحكة الحسية الخشنة إيماء بذيء بسخونة اللحم وانـدلاع شهوة مكتـومـة وهشـاشـة العـظم الـرقيق يتهشم بـين الأسنان القوية، وطراوة الصدر الصغير مع كأس الكونياك.

ـ وَاللا الحمام غية. .

وهو يسعل، ويكـرر نفسه، في غيـاب السُكْر، ويهـتز جسمه الضخم في آخر اندفاقات الضحكة المتحشرجة المكتظة، لا تكاد الكلمات تخرج من أحشاء الضحك الممتلئة.

ـ أبداً يا معلم جورجي، وحياتك دا الحمام حتى خايب السنة دي، ولسه ما عملش جوزين على بعض. .

ـ الله يـا ابني مـا تشـوف الحكـايـة إيـه. . لازم فيـه عِـرسـه بتخطفولك. . والا البومـة اللي لابْـدة على راسِ الـبرج. . والله أنـا سامعهـا بوداني يـا آبا إرسـاني. . سامعهـا الليلة وأنـا جـاي حَدَاكو من قـدام الجنينة، وسـامعها ليلة الجمعـة اللي فـاتت على طول.

أي والله، يجب أن يصعد البرج يوماً، ويخلص من هـذا الهمّ

الآخر. . حكاية البومة هذه، أو العرسة، أو الحدادي أو الصقور، ما من أحد يدري. . تقتل أفراخ الحمام أولاً بأول، وعندما يذهب يطل عليه لا يجد إلا الريش الصغير ملوثاً بدم جاف قليل، والأصابع الصغيرة الملتوية في القدم المقطوعة ملقاة بين لفائف ورق الجوافة الذابل.

كانت العينان الواسعتان المضيئتان تنتظرانه، في عتمة الغرفة العلوية. وهو يدخل، يحمل المدفأة ما زال يتقد فيها الفحم بناره الحميمة المكنونة، عليه طبقة رقيقة بيضاء من الرماد المشقق الناعم. وضع المدفأة، بحرص، على الأرض، كأن كل حركة منه زلزلة في الغرفة وفي جسمه كله، ولزام عليه أن تكون كل إشارة وكل إيماءة، وكل انحناءة، موزونة محسوبة، وإلا اختل توازن هش ما، وتقلبت أعاصير ثقيلة متربصة ينبغي أن تظل محتبسة راكدة. لا، لم يشرب أكثر مما ينبغي. وابتسم، أو لعله شرب. وماذا يعني؟ عندما صَلَب عودَه، صدمته العينان المدورتان صدمة أخرى، من على السرير بأعمدته النحاسية وملاءة التُل البيضاء التي تدور حوله، وتتدلى ممزقة هنا، متهدلة هناك، وإن كانت ما زالت توحي له، بمجرد تهدلها الثابت دون اهتزاز، بعمق لياليه التي لا غور لها، محتشدة بالجوع والجنون والمضض والحبوط وسورة الأيادي والأطراف وتلويات حيوانات الأجسام وصرخاتها وتحليقها مشرعة المخالب مفتوحة الأفواه.

في فتْح الباب، اهتز خشب الشبّاك وأخذ يصطدم، وهو يرتج من عصف الهواء، اصطدامات سريعة متلاحقة بأركان

الحائط وبالأكوام الصغيرة التي تسنده، ونفذ منه فجأة تيار متقلب لافح البرد، فاستدار يحشر الباب في حائطه، فيحتك بالأرض التراب غير المستوية. وانقطع تيار الهواء، فكسل عن أن يذهب للشباك، كما كان في نيته، يعيد إحكام اغلاقه بالخرق ويدفعه بمشقة إلى مستقره من الحائط الطيني.

وما زالت العينان المدورتان المشعتان في عتمة الغرفة تحيطان به، فسيحتين، دافئتين، مياههما راكدة حوله، تحاصرانه. وخطا إلى السرير يسبح في عنصر العتمة يحمله متموجاً خفيفاً، صاعداً هابطاً في رفق، من غير جهد، ولكن في احتياط واتزان دقيق. وعندما وصل إلى مرساه غاص جسمه قليلاً تحت ثقله نفسه ثم هبّ هيناً، يجذبه بمجرد الاستسلام له، إلى أعلى. وألفت عيناه العتمة، وعظام الوجه الهشة الحادة، وفي وسطها بِرْكة العينين الصامتين، وشعرها المجعد غير المسرح، في خصل صلبة تقريباً. سقط جانب وجهه على المخدة، بطنها هش مشفوط، أضلاع صدرها تبدو ترائبها تحت الجلد الأسمر المشدود الغض، وفتحة القميص الرمادي الخشن واسعة، في طرفها تصلُّبٌ قليل حائل تلمسه العين، من بقع لبن جاف، وتحته وجه الصغيرة، في لفافتها، تمص حلمة الثدي بشرَهٍ مصمِّم غائب عن كل شيء آخر، واليدان الدقيقتان تتلمسان الثدي الصغير، تتكشفانه وتدعوانه وتتطلبان منه، والوجه المحتقن محبوس الدم، داكناً، لاهثاً، في كتمة الرضاع الدؤوب الذي لا يهن تصميمه وتلمسه. ارتعش قلبه لها، والشفتان شرْطتان ملتصقتان على

الكرة الصغيرة التي تنبض بالحياة، قابضتين، مدفونتين في اللحم المضغوط. الذراع العارية القوية تحيط بالصغيرة، عظمة طويلة ناعمة مكشوفة منفلتة، معقوفة حولها، تحملها على جناح ناحل محرود، أصابعها تلتف بالرأس الصغير، ثابتة الأظافر، حول عظام جمجمة لينة معوجة، تنبض، ناصلة الزغب.

قال لها تأخرنا هيا بنا فقالت نعم تأخرنا هيا بنا. ووقفت، ما زالت شاحبة قليلاً من أثر الولادة ولكن نشطة في الظلام وأحسها تعد نفسها للخروج. كان مستعداً. وكان ثم قلق ناهش أيضاً لا يكاد يجعله يطيق الانتظار لحظة. قالت له الليلة؟ قال نعم لم يعد إلا الليلة. قال الانتظار لن يؤخر ولن يقدم قال لها ليس أمامنا إلا الليلة قال سنخرج، سنخرج الآن. شوارع القرية مظلمة تسفعها ريح متلاطمة نفاذة البرد. وحدهما يحملهما إحساس بالفقدان، وضرورة الاستدراك. الآن. ليس معهما رحمة. ومع ذلك ففي حسه أن الصغيرة قريبة منهما، وأنهما إنما إليها يخرجان، وهي وحدها وِجْهتُهما، يعرفان أين هي، ويتفقان في معرفتهما، دون أن يقول أحدهما للآخر عن معرفته شيئاً. في نصف الليل خرجا إليها، يخوضان في قلب القرية وحواريها، تجابههما فجأة حيطانها المصمتة المسدودة، ويرقيان، بلا جهد، أكوام السباخ وينحدران في السكك الضيقة المتعرجة، أقدامهما مع ذلك لا تحس موطئاً على الأرض. الغرض الذي يحمل ثقلهما ويدفع بهما إلى الأمام يحيط بهما، غير مرئيّ ولكنه محسوس لا يقاوَم. ويهب الهواء بفستانها الأسود المترب ويلتصق باستدارات

الهيكل الشامخ الناعم الأحجار، وفي خطوته السريعة المنتظمة الإيقاع تتوفز ذكورته من جديد، في حموة داخلية، في توقٍ إلى الصدر الوافر يهتز بحرية وثقل لدن تحت النسيج الذي يتكور حوله من دفعة يد الهواء، والبطن المقبب الراسخ القوي، والساقين العاليتين الممتلئتين، بقدميها الحافيتين الكبيرتين الخفيفتين مع ذلك. لكن العينين واسعتان، مضيئتان، جارحتان، فيهما إبهام وصمت، ناعمتان مع ذلك، فيهما نداء وخضوع. لمن العينان، وما الوجه؟ الهش الطويل بشعره المجعد، طبقة أساسية سفلية من العظام الحادة تحت وجه آخر مليء بنعمة الدسامة فيه سمرة الشمس ورائحة الخبيز والحليب وروث الجاموسة السخن.. خضرة.. خضرة.. العينان السمراوان تنظران إليه بإلحاح، ودعوة. نظرة الأنثى العارفة الفاهمة، كأنها تقول له تعال ماذا تنتظر مني أن أفعل. قال حنونة نحن نذهب إلى بيتنا ونحن نعرف أين البنت، خرجنا لنستعيدها قبل أن يطلع عليها الفجر البارد. العينان صامتان، فيهما ثبات محايد. والتي تسير إلى جانبه، ومعه: هي كلتاهما معاً، وقد انحل كل تعارض، ولم يوجد، لم يوجد قط ذلك الصراع الذي طالما عذّب قلبه المخنوق، لم يرتعش جسده أبداً للمسة يدها الخشنة وهي تسلّم عليه من تحت الطرحة كلما جاءت في الصبح عواف يا معلم فانوس بصوت فيه طراوة وتمنّعٌ ما، لم تسخن أحشاؤه أبداً تحت وقدة جسمها الفارع الخصيب وهي تنحني أمام الفرن، وتركع تحت الجاموسة، وتعجن الجلة، وتأتي

بصفيحة الماء من حنفية المشروع على رأسها، يشر الماء من صفيحها الأبيض اللامع في شمس الصبح الباكر، بل هناك الآن شبع عميق وتملّك ورضى، وقد اندست رجولته، مراراً، لا حصر لها، في هذا الجسم الوثير الهش معاً، تحت هذه النظرة الساكتة المغوية معاً، في هذا البطن الوفير الهضيم معاً، تحت هذا الوجه الغض الشاحب المشدود المشرق معاً، في ذلك الكيان الأصلي القديم المشترك المعذب المحبوب الذي لا قلق فيه أبداً.

وقفا فجأة، في نَفَس واحد، لم يتبادلا كلمة ولا نظرة، وسكت الهواء مرة واحدة. كان البرد هادئاً، رازحاً تحت سماء نصف مقمرة بها غيوم قاتمة مقطعة كأنها ملتصقة بجلد السماء المتوتر الناشف، ظلال القمر السوداء تسقط على صلابة الأرض، حالكة السواد. من ورائها سور السراية القديمة، حجر ضخم رمادي مرصوص، تقع عليه فضة القمر المصبوبة، تحدد خطوطه وتعرجاته وألياف الخشنة وحباته الرملية البيضاء التي يتقشر عنها جسد الحجر. البيبان مغلقة والشبابيك مظلمة، والفناء وراءها فيه نفح الهجران والخواء، واسعاً موحشاً بأشجاره العالية الأثيثة. واصطفق مصراع نافذة على غير انتظار في الصمت وسكون الهواء، وخبط بحجر الحائط ثم ارتد، ليس هناك أحد يغلقه أو يفتحه. في ذهنهما شيء واحد مشترك: لا ينظر أحدهما إلى الآخر الآن، أبداً، أبداً. شيء يعقل لسانه عن أن يقولها، بينهما اتفاق معقود قديم. وهو مع ذلك مهموم مُعَنًى مدفوع به إلى أن يتكلم، إلى أن يفتح فمه، وفي حسه أنه

بـالصمت وحده يُحـوِّط على كنـزٍ ما، يصـونه من الفقـدان، وله عنـدئذ أمـل فقط في الخلاص، وأنـه مع ذلـك مشـدود مشبـوح بالرغبة في أن يلتفت إليها، ولكن الأمـل الأناني الـذي يحزى لـه قلبه، يكبحه، وهو يكز عليه بقبضة أسنانه في وقتٍ معاً. عليهما أن يخطوا الآن، الآن دون انتظار لحظة واحدة، على هذه القنطرة الخشبية فوق ماء الترعـة، إلى الشط الآخر. دون نـظرة للوراء. هناك، بعيدة ولكنها مرئية تملأ العين، لفة صغيرة سوداء في دائرة الفضـة الراكـدة، مرميـة عـلى الـرمـل المـرتفـع الأبيض، وسط الخـلاء. في مواجهـة السراية. لفـة صغيرة يمتـد إليها كـل قلبـه بـأذرع مشدودةٍ أصـابعها تـرتجف من فرط التـوتر، محبـوطة، في فـراغ أحشائـه. ظلال سـور السرايـة وفضتهـا تنعكس في مـرآة الترعة الخضراء الداكنة، غـائرة، ذاهبـة إلى أسفل، حتى نصف القمر الذي يسـطع مقلوباً في عمق سحيق، بـين الغيوم الـواقفة السـوداء. ظلال السرايـة كلهـا، بـأبـراجهـا المـدورة الحجـريـة الواطئة، بنـوافذهـا المسدودة، وبـابها الخشبي الضخم المنحـوت بنقوش دائرية هندسية، في وسطها صليب بارز مربع الأضـلاع، وحـول أطرافـه استدارات كـأجسام الـزهور، كلهـا محددة دقيقـة المعـالم، تحت، في مـاء الـترعـة. أنت تعـرف أن هـذا القصر لا وجـود له، وراءك، معـرفة اليقـين الذي لا يحتمـل الشك. وإن كان لا يمكن أن تلتفت إلى الوراء، لا يمكن، تحت تحـديد خـطر صارم تعرفه، ومع ذلك لا تعرف كنهـه. لا تعرف مـا هو، لكن تعرف أنك لا تستطيع أبـداً أن تلتفت للوراء، وتتمنى من أعماق

قلبـك أن تكون هي أيضـاً عارفـة. نعم، بـل هي تعـرف، ولا يمكن أن تنظر هي أيضاً، إليك، وإلى السراية. أنفاسك المكتومة تتسارع من رعب القلق، لا تنظري. . لا تنظري. . شط الترعة يتحدر هيناً، ومرآة الماء المخضرة صافية الـوجه، البـاب أمامـك الآن، تحت، في المـاء، مـا عليـك إلا أن تنـزل من عـلى خشب القنطرة، أن تخطو على تربـة الشط الرمليـة المخضلة المتماسكـة ينز عليها ماء خفيف نـدي، وإن تهدي خـطواتك في العـالم المقلوب تحت الماء، إلى اتجاه بـاب القمر تمـاماً. أنت وحـدك. هي تفعل نفس الشيء أو هي تفعله معك، في وقت واحد. لا تـراك. ولا تراها. ولكنها معك، هنـاك، هي في داخلك، وخارجـك معاً. لا تـراها وهي مـلء عالمـك، دون أن ترفـع بصرك، معاً خـطوة بخـطوة، تحت السور العتيـد، الـذاهب إلى ارتفـاعـه المعكـوس تحت، في السماء المائيـة نصف المقمرة. حتى إذا وضعت قـدميك أمـام الباب مبـاشرة ابتلعك القصر فجـأة، ووجـدت نفسـك في داخله، في داخله، في الفناء، تحت السماء هنـاك، وأغلق الباب وراءك دون صـوت، ودخلت ولم يعد هنـاك أمـامـك ولا وراءك شيء، لم يعد هناك باب ينفتح لك مرة أخرى أبداً، لم يعد هناك إلا السراية المهجورة الخربة، يحيط بك سورها المتهدم العالي، لا منفذ منه، لا ثغـرة فيه، أنت في الـداخل، لا مخـرج لك أبـداً، تـظل تدور في الـبرْد الثقيل الصـامت، تحت الأشجار المتكـاثفـة البـالية، وعـلى الأرض ورق الشجر قـد سرى العفن إلى الأرض المخضرة بالطحلب تحتـه، وعطنت ثـمار البلح والجوافـة القديمـة

التي سقطت بين طبقات الورق المتراكم من سنين عـديدة، جف وصـوّح فـوق طـين آسن، تـدب فيـه حشرات الأرض البليـدة السمينـة وعناكب سـوداء، بطيئـة بما تحمـل في بطنهـا من تخمـة العفن. في هذه الممرات، بـين أشجار عجـوز عليك أن تـدور، دون نهايـة، تحت النوافـذ المظلمـة، لا بـاب هنـاك. لا، لا . . أبـداً. لا ينحـدرْ خـطوُك إلى المـاء، حنـونـة تشبثي بخشب القنطرة، لا تنزلي، لا تنـزلي معي، لن أنزل أنـا، أبداً، أبـداً، هنـاك، انـظري، عـلى الشط الـرمـلي الأبيض بنتنـا. ذراعـاه ممـدودتان، عينـاه مشدودتـان، قلبه مشبـوح مسلوب ونظره معلق بالقامة النحيلة الشامخـة في الجلابيـة السوداء، عـلى وسط خشب القنـطرة، المقوس قليـلاً، مرتفعـة عنـه، تنـظر إليـه من فـوق، بعينيهـا الواسعتـين في القمـر، صـامتـتين، دون غـوايـة، ودون إدانة.

والحدادي العريضة الأجنحة تـدوّم وتحوم تحت صخـور الغيم في السـماء، هائلة الأبعـاد في انفسـاح جنـاحيهـا، تـدور دورات متتالية هابطة، وهي تتضخم ويتسع انبساط جنـاحيها السـاكنين دون حركة، ثم تنقضّ بصمت، ونعومة، على اللفة المرمية وسط الرمل الأبيض المـرتفع، وراء الشط الآخـر، وترتفـع، مناقـيرها خـالية، وتحلق إلى علو بعيـد، ثم تعود، وتعـود، وتعـود، دون صوت في كل مرة، ليس في مناقـيرها المِزَع الممزقـة التي لا يُطاق مرآها، في هذه الدورة التي لا تنتهي.

في اللحـظة التاليـة كانـا معاً، تحت المـاء، في الترعـة العكرةِ

السُمرة، وقد انعقدت الظلال وبقع الفضة السائلة معاً، واندمجت، وتقلبت في اهتزاز الموج البطيء. والماء قابض وضحضاح، والأرض تميد تحت جسميهما، لا تكاد، لزجة، رملية، ويشبّان معاً، ويخبطان بالأذرع، ولا رشاش هناك، يحتفظان بالوجه فوق الماء، يشهقان في طلب النَفَس، ثم ينقلبان في الماء معاً، دون غرق، يحتضن بين ذراعه الجسد المبتل الذي التصقت به الثياب وارتسمت كل تفاصيله تحتها، في شفافية محسوسة، تدفعه ليلتصق بكل استدارة فيها، ويطفوان معاً، في تموّج متماسك، متمددَيْن، يحملهما الماء دون جهد، ولا يخرجان فوق سطحه، والماء قد انحسر بجلبابها الطويل عن ساقيها المستديرتين اللامعتين من البلل، في لحمها، تحت يديه، بضاضة جديدة طازجة تومض في عتمة الماء المقمرة نصف الشفافة، والقمر يلوح ويختفي الآن من فوق الموج، يشع وينطفىء، قرصه نصف الدائري يهتز ويتساءل ويذوب ويعود إلى الاستدارة الساطعة الصلبة الحدود، والزمن طويل، وخاطف، ولا حس له به، وذراعاه العاريتان تحيطان بالفخذين الشامختين تحت الثياب المبتلة، وجهه غارق، توتره الراضي المرتاح لا ينتهي، وفي فمه طعم الماء واللحم العذب المضطرب.

قال لها تأخرتُ كنت أريد الخروج مبكراً قالت له نعم تأخرت لا تريد أن تفطر قال لها أفطر فيما بعد قالت الإفطار جاهز قال تأخرتُ كنت أريد الخروج مبكراً قالت نعم وكانت الشمس وراء الحوض الشرقي هناك ومع ذلك لا يبدو أنها قريبة

الشروق كأننا ما زلنا في أول فجرٍ دائم مقيم لا يتحرك معتم وشفاف معاً والسحاب الرمادي الزرقة مشعث الأطراف والهواء الباكر يسف بالتراب من على صحن الجرن الواسع النائم بحفرته العريضة الغائرة الجافة، والبيوت حواليه مائلة متساندة رثة في نصف دائرة مضطربة تهبط أرضها وترتفع حول الجرن.

وكان يسير مسرعاً مُحنياً رأسَه أمام ضربات الهواء الجاف، البرد غير مشبع وغير بليل يحِز العظام المرهقة الخاوية، والفلاحون يلتفتون إليه في طريقهم للغيطان، وعلى أكتافهم الفؤوس والمخلاة الخيش والمقاطف. . السلام عليكم وعليكم السلام ورحمة الله، لا يعرفه، أو لا يذكره، وهو يقضم فحل بصل في يده الضخمة السوداء المفلطحة الأظافر، خشن الوجه من النوم، على رأسه منديل معقود، ومن ورائه تأتي عجلة مسرعة والجلباب يطير بين الحيطان المصمتة. وانحرف في السكة المؤدية إلى الجنينة، وهو ينزل وساقاه تتقاربان وتتداركان في سرعةِ تحدرِ السكة حتى وصل فجأة أمام دكان الطوب النيء المفتوح على الجرن من الناحية الأخرى. كان الرجل غارقاً في حفرة طينية لزجة واسعة، وحواليه في الدكان قوالب الخشب بمستطيلاتها المتجاورة الفارغة، ملقى بها على الأرض ومنصوبة على الحائط الرمادي ساقاه تغوصان حتى ما تحت الركبتين، كأنه على عبتات النزول في البركة المحفورة التي تنز بماء قليل صدىء ثقيل الوزن. وهو يعجن الطين والتبن بذراعيه المفتولتين الملطختين بالوحل، ينحني بصدره القصير المدكوك المتين

ويعتدل، يملأ فراغ الدكـان ونصفه مـدفون في الأرض، قميصـه مقـور الفتحة، مقـطوع الكمين، أسـود جـاف متصلب، ودقنـه الكثة تخفي فماً واسعاً غليظاً تحت الشارب الغزير الحالـك، عيناه خفرتان عميقتان، وهو يلقي بالسلام، كأن فيهما لمعة سخرية.

وعندما خرج إلى الزراعية في طريقه إلى جنينة الجـوافة كـانت السماء ما زالت كاسفة الـزرقة، كـابية، بـاردة، مُسجَّاة. كـانت الساقية الحديديـة بلونها البني المحروق صـامتة مبلولـة الصدأ من ندى الصبح، تشق البئر وترتفع تحت ظل شجرة التوت العريضة الجاثمة، حيث نور فَجْرٍ أكثر عتمة وأقل شفافيـة، وإلى جوارهـا خيمة العساكر بيضاء باهتة، تبدو متهدلة غير مهمـة، وبجوارهـا عربة الجيش المصفحة، ودبابة صغيرة من طـراز قديم كـأنها لعبة معـدنية بلونها الأصفـر المطلي الجـديد، ولكن مـدافعهـا الـرقيقـة الطويلة وسلسلة الجنزيـر العريضـة السوداء القـوية، عـلى تراب الطريق، وبرجها القليل الارتفاع، تحمل كلها قوة كامنة متربصة تحت المعدن الذي يبدو مع ذلك هشاً، وعليـه أرقام وحـروف لا يكـاد يقرأهـا من بعيد. منـذ مدة طـويلة والأخبار والإشـاعات تجري بأن اللجنة قادمة للتفتيش، ولكن العمدة يضحك ويهتّ في النـاس. جاءت اللجنـة أخيراً إذن، ومعهـا قوة. كنـا نظن أنهم سيكتفون بمندوب الإصلاح في المركز ومعه عساكر الأمن وضابط من المحافظة على الأكثر، ولكن هذه هي اللجنة، ومعها قوة. يا فرج الله، لا بد أنهم أجـروا التفتيش الليلة الماضيـة في السراية. أخيـراً. أمامـه اليوم عمـل كثير، وسـين وجيم، ينفض ما عـلى

قلبه. ليس لديه إثبات، صحيح، لكنه على يقين، وسيقول، سيتكلم بالعقل يا وله. بالعقل يا فانوس، أوع تصرّخ أوع تهبّل، ما عليهم إلا أنهم يطلبوا الدفاتر كلها، والفلاحين كلهم، ويحققوا. وسيعرفون، سيعرفون. هل يتكلم الفلاحون بعد الصمت الطويل؟ هل يتكلمون أخيراً؟ ويقولون عما في القلب من همّ وغمّ؟ والعمدة هل يكون موجوداً عند سماع الأقوال، ويشخط وينطر، ويجيب سيرة الآباء والأمهات والأخوات هل تنفك عقدة اللسان، ويكشفون الورق، أم تطويهم اللعبة من جديد؟ فيهم، نعم فيهم عيال بقلب حديد، وألسنة كالكرابيج.. آه يا ولاد، لو أفش غليلي، وأنقع السم عن قلبي، وأشوف فيهم يوم.

دفع باب الجنينة وخطا بين أعواد حطب الذرة النحاسية الداكنةِ القشرة على التراب، في تقطّر نور الصبح المبكر، تحت السَنْطة القديمة المجعدة بعقدها الخشبية الناتئة، وبين أشجار الجوافة القصيرة، مصفوفة، منشعبة، في خطوط هندسية، والممرات التراب بينها مغطاة بأوراق صفراء ومخضرة هشة ضامرة تخشخش تحت قدميه وتتهشم ويطير بها الهواء.

وملأ عينيه البرج الجاثم الطيني، بثقوبه الصغيرة، رازحاً، دائرياً، عريضاً، من تحت، يستدق وهو يرتفع، وتبرز من أعلاه نتوءات خشبية من كل جانب، كأشواك في جانبي فم حوت بري، جسده من الطين النيء. وأسند السلم الخشبي النقالي

إلى جسم البرج المتين، وراح يـرقى العوارض الـرقيقة الحـرجة، ممسكاً بقائمتي السلم الجانبيتين، يـدرج، في كل خـطوة إلى أعلى نحو سماء مُسفة هابطة إليه، مهـددة، وقد أخـذت هبات الهـواء تصفِّر، وترتطم حواليه، وتلصق جلبابـه الصوف بجـانب صدره مرة، ثم تنفخه وتملؤه حتى يكاد دفع الهـواء يحمله، رغماً عنـه، ويلقيـه إلى تحت، في هـوة الفـراغ، نحـو الأرض التي تبتعـد، وتصغر، وتبدو تحته قاسية، غير مرحبة، بأشجارها المصفوفة التي يرى، من فوق، نواصيـها المتكـاثفة تـبرز منها الأغصـان المدببـة العارية الأطراف.

الغيطان تحته، وهو يرتفع، موحشـة، خاويـة، نائمـة في نور مبهم، زروعهـا قصـيرة، مقـرورة، تـرتجف، والقنـوات بينهـا متعرجة بمياه مسودة. وهديل الحمام رتيباً، ملحاً، يتردد في السماء المغلقـة، يخطفـه الهواء منـه، فيخفت ويبتعد، ثم يعيـده إليه في نفحة باردة، متضخماً يملأ البرج والسماء معـاً بطنـين ناعم مستمـر مضطرب، وخفق الأجنحة في هياج الريش الوثير الـرقيق، وهي تتضـام عـلى قبـاب الصـدور الممتلئـة بشهيق متخم بـالأنفـاس المخـتزنة ونفث الهـديل، بـزغبها الملون المتقلب الألـوان في النور المكتـوم، يتموج عليـه الريش النـاعم رماديـاً ورصاصيـاً وأزرق وأبيض ومخططاً بخطوط منسـابة أليفـة. وهو ينـظر في كل خن، ويمـد يـده إلى الـدفء الضيق الـزخم بـرائحـة الـزبـل الجـاف الحريف، ويتحسس العوارض الخشبيـة الناتئـة من البرج، تحت يديه، قوية الألياف، متينة، عليها بقايا الزبل الأبيض في تخثرات

صلبة الملمس مشعثة الحواف تتبدى بينها فجأة عضـلات الخشب الخشنة الرفيعة المفتولة محترقة من طول التعرض للبلل والشمس.

ويطير الحمام من على العوارض ومن الثقوب، ثم يعود، يسير متئداً برشاقة متحيرة، يدير رأسه كل ناحية، وينقر تحت جنـاحيه وفي صدره بإلحاحٍ وبحث، ويغوص برأسه في الصـدر الأصهب الأبيض، غـارقاً بعينيـه في نعومـة الشعر، والعصـافير تـزقـزق، متفزعة خفيفة لا وزن لها، ويأتي اليمام الـبري نحيلاً، ينـظر إليه كأنما لا يكاد يقبل وجـوده هناك في العلو الفسيـح الذي ليس لـه مكـان فيه، يـرتفع بـاستمرار دون وصـول، ويظل يـرتفع، بـلا نهاية. اليمام الذي لا تربطه به رابطة، كأنمـا يتنازل حـين يرضى بأن يحسو مـاءه، أو يلتقط الذرة والغلة من بـرجه، طليقـاً، غير مقيد بحُبِّ الناس.

استـدارة البرج تحت يـديه دافئـة في الصبح الغـائم الشـاتي، بطينها الجاف المخطط بخيوط التبن النحاسيـة، وهو يتحسسهـا، ملء ذراعيه، فيطير الحمام قليلاً إلى بعيد، ثم يعود إلى العوارض الخشبية، ويهرب إلى الخن المعتم الداكن، ما يـزال يهدل وينـوح بإيقاع رتيب لا يفـرغ أبداً. قـدماه تهـتزان على عـارضة السلم، وهو يعلو يُسنِد جسمه كله، لحظة إلى الجدار الممتلىء في دورانـه العـريض البـطيء. يسري إليـه، من الحيـاة التي تعمـر داخله، دفـءٌ ناعم ينبض في أنين خافت مستمتع. وجهه قريب جداً من الحائط الطيني، في عظامه جوع إلى الاقتراب منه، والتمرغ عـلى صفحته البضة المتلقية. الجسد الـطيني الباذخ يصعـد إلى الهواء،

شـامخاً، من فـوق عينيه الـظامئتين المحـترقتـين. يحتضن الـبرج احتضـاناً وثيقـاً متشبثاً كـأنه في قبضـة صراع قاتـل لن يسلّم فيه أحد الطرفين. لا يكاد يرى قمة البرج، تتخايل له، على السطح المقبب البعيد، عينان واسعتـان في عتمة غـير مستبينة، والأيـدي بمخـالبها المقـوسة تقبض عـلى ذؤابة قلبـه، وتعتصره، تلقيه، في عناق الصراع الصموت، شلواً جـافاً في ظلمـة مقفلة أرضها من طين ناشف عار. إنها هناك، جـاثمة في مـأواها، لا تُنـال، منيعة لن تـطولها يـداه قط. لن يستطيـع الصعـود إليهـا، وهـو يـرفـع جسمه، بجهد، إلى العـارضة الأخـيرة الصغيرة في السلم الـذي يتذبذب أهون ذبذبة، لا يكاد يتأرجح، ولا يسقط. ويمد عينيه إلى الخن الأخـير، وقلبه يهـوي منه، ويـتردى، في معرفـة سابقـة بما يراه، ويراه حقـاً في عتمة الكن الصغـير الخاوي، رأسِ الحـمامة الصغـير المعوج العـظام، ملقى بـه عـلى الـطين، مبتـوراً. عـلى جلدتـه الشفـافـة زغب مشتت هش. والقـدمـان الصغـيرتـان، بـأصابعهـما الـدقيقـة الحمـراء، مقـطوعتـان، لم تكـد تنبت لهـما المخالب الصغيرة الوديعة، مشلولتان، ملتويتـان، كأن الحيـاة قد غاضت عنهما فقط منذ لحظة. وكـومة صغـيرة من ريش متناثـر، الحـمامة الصغـيرة افترستهـا، قبل الفجـر، نـظرةٌ ثـاقبـة، صلبـة قاسية. وكأن فماً فاغراً في داخله، محفـوراً في جدار نفسـه يصرخ صرخـة طويلة لا تنتهي، تنـوح بلا أمـل، يتردد صـداها، حتى الأفق الغـامض بين دغـلات الأشجار الصغـيرة في البعد، المثقلة بأحزان الصباح الجديد.

لا يرى شيئاً على سطح البرج المكور الصقـول، لا يجد شيئـاً على الجدار القاحل المسـدود،ذراعاه تعـانقان، بـلا جدوى، ولا تَحَقُّق، استدارةً دافئة ناعمة ولكن متماسكة لا تلين.

ونـظرته لا يستـطيع أن يحـولها، من وراء استـدارة البرج التي تسد نصف الأفق، عن المرتفع الخشن بنباتات الحَلْفاء الشائكة، تمتـد جنبه وتحتـه مياهُ النشـع الملحي المهجـور، والـطين المغـطى بكِسَرٍ من الملح الثلب الـرمادي يلمـع في نـور الصبـح الغـائم. وعلى المرتفع نتوءات القبور المستطيلة المحدبة الظهور، بصلبـانها المعوجة الساقطة، صغيرة، مهملة، لا أهمية لهـا، تحت الأغصان الملتفة المتراكمة، المضرجة بنقط دموية قانية، غضـة الاحمرار، في الأشجار الكثة الوحشية.

في الشوارع

كانت العينان اللتان تنظران إليه قاسيتين، معاديتين، يعرفهما طول عمره. تواجهانه، بصمت، من غير لغة. ولا يريد أن يرد عليهما.

وكان مس الموسى ينزلق على صفحة وجهه الغارقة في رغوة دمثة. معجون الحلاقة له لذعة خفيفة على الجلد، احتكاك الموسى بوجهه ناعم نظيف مريح. وفي الحمام هدوء ضوء الصبح النائم، ويأتيه فحيح البوتاجاز خافتاً من بعيد، تحت ماء يغلي في أمان. وقد انجابت فرقعة أوتوبيس المدرسة من قليل، وذهب يحمل الأولاد وهو يعوي بزمارة دعيّة صخابة، ويرتجّ لمروره زجاج البيت.

ربنا يستر. لعله لا يطلع عليهم في الطريق، وتحدث حادثة.

هذا القلق نقطة صلبة خشنة الحواف لا تنحل، ولكنه، بشكل ما، ينعّمه ويصقله ويغطيه، لا يذيبه ولا ينساه ولا يتجاهله، بل يقبله ولكن يدفعه بعيداً تحت طبقات أخرى من الرجاء والتعلل بالثقة من أنه لن يحدث شيء. وماذا بوسعه أن

يفعل؟ كل النـاس تتكلم، ولكن الصحف والإذاعة والتلفـزيون لا تقـول شيئاً، بـإصرار. لا أحد من معـارفـه أو أصـدقـائـه أو أقـربائـه رآه رأي العين، أو سمعـه بالفعـل بأذنـه. كل النـاس سمعت من مصادر ثقة، كل الناس عرفت من أصدقـاء وأقربـاء لا يمكن ولا مصلحة لهم أن يكذبوا أو يروجـوا إشاعـة لا أساس لهـا. سلطات الأمن تعمل ليـل نهار وقد جنـدت قوات خـاصـة لتعقب حقيقـة الأمر، ولكنهـا تحـرص أن يكـون ذلـك من غـير إعلان، حتى يأتي اليوم المشهود.

وهـو لا يكاد يصـدق، أو يصدق. ولكنـه لا يعتقد أن الأمـر يمكن أن يتعلق بـه أو يهمه مبـاشرة. قد يكـون صحيحـاً. لعله فعلاً يمر بـالشوارع، هنـاك، بعد الشـوارع، ولعله فعلاً يهـاجم الناس، ويقع المصابون، ما من أحد رأى شيئـاً حقاً. ولم يـظهر في طريقه على أي حال، ولا طريق الأولاد في المدرسة.

صحيـح أنه التقى، بمحض الصـدفة، بـإثنـين أو ثـلاثـة من معارفه القدامى. وكانت الأخبار قد ترامت إليه أنه اعترضهم في الشـارع، وأن شيئاً مـا قد حـدث. أصابتهم جـراح، ويقولـون أنهم يحملون آثـار تشوهـات. لكن لم يكن يبدو عليهم شيء، لا أثر لجرح، أو صدمة. لعلهم يحسنون إخفاءها.

كانوا حريصين عـلى أن يظهـروا بمظهـر طبيعي جداً، طبيعي أكـثر قليـلاً ممـا يمكن لـك أن تنتـظر. وسلم عليهم هـو أيضـاً، بحرارة أكثر قليـلاً ـ قليلاً جـداً ـ من المعتاد، وتبـادلوا التحيـات

والمجاملات وأنهوا ما هم بسبيله، وانصرفوا. لم يشيروا إلى شيء ولو من بعيد، لم تجر كلمة بينهم عن الموضوع كله. هل في نظرتهم شيء بعيد، غائب، أو مكتوم؟ ربما كان هذا كل ما في الأمر. وهم يستحقون ما وقع لهم على أي حال - إن كان قد وقع لهم شيء. لماذا يتصدون له؟ لماذا يخرجون إليه؟ ما لهم هم؟ فإذا كانوا قد ذهبوا إليه، في سكّته، عمداً أو عن غفلة، فلعلهم كانوا قد حسبوا حسابهم، من الأول. ونالوا جزاءهم على كل حال. كانوا إذن قد قبلوا المخاطرة والنتيجة الضرورية للمخاطرة، أو استحقوا ما يجري للغافلين. ماذا حدث لهم؟ ما تلك التجربة يطوون عليها نظرتهم المرتدة إلى الداخل تتجنب الالتقاء والمواجهة؟ ماذا يمكن أن يحدث - على أي حال - في الشوارع الصيفية الضيقة الغاصة المحرقة المتراكبة بالحر والزحمة؟ بين الأوتوبيسات المتوحشة الثقيلة الهاجمة، والبيوت القديمة جففتها الشمس واغبرت بتراب خفي عنيد صفحات وجوهها الذابلة المتساقطة الجلود؟ بين مواكب الناس المدومة المختلطة المتشابكة التي لا تنتهي بالجلاليب والقفاطين والفساتين والملايات والبنطلونات والبلوزات، بالجزم والبلغ والصنادل والأقدام الحافية، أمام الدكاكين المفتوحة وسيارات النقل الضخمة المشعثة الحمولة، بين عساكر المرور بعصيهم القصيرة ووجوههم السوداء الغارقة في الملل والعرق، على الإسفلت المشقق، وجزر البلاط الضيقة الشريطية وسط الشوارع، والخضرة المصفرة الساقطة، وأوراق الصحف والنفايات المتطايرة وأكوام التراب الصغيرة،

بين أكشاك السجاير والبضائع المستوردة، والكتب والمجلات الملقاة على الرصيف، بين الأنوار والصفافير والسيارات اللامعة، والتاكسات المكسرة، والعربات الكارو والترامwayات وعربات الفاكهة والفجل والجزر؟ ماذا يمكن أن يكون قد حدث لهم، أن يكون قد فعل بهم، في الشوارع، وفي وقدة الشمس العارية البذيئة وفوانيس النور وإعلانات النيون؟

كانت دفقات الماء الفاتر تنصب على رأسه ومؤخرة عنقه، يجمعها بين راحتي يديه من تحت الحنفية، ويطس بها وجهه، ويلقي بها على رأسه، فلا يسمع إلا صدمات الشلالات الصغيرة المفاجئة، وهو يشهق باستمتاع، وعنف، ويجفف وجهه كأنما يكحته، كأنما يريد أن يمحو شيئاً لا يُرى ولا يمحي.

كان الأوتوبيس الضخم ينطلق غاصاً بالناس ولكن صامتاً، على حافة النيل. وقد فتح الشباك إلى جانب وجهه، وساقاه مرتفعتان في وضع حرج، قدماه على الاستدارة الحديدية الناتئة فوق العجلة الأمامية، ناعمة، مكشوطة بان صدؤها، والزحمة قد تحولت الآن إلى نوع من العجينة الثابتة الرخية، انحسرت عنها تقلبات النزول والصعود وصراعات الوقوف والتحرك، وقطع التذاكر ـ أو التهرب منه ـ واصطياد المقاعد والتربص بها والبحث عن مواطىء مريحة للأقدام. وفي داخل الكتلة الضخمة المندفعة كأنما رغماً عنها، لا تملك أن ترد حركتها أو تطامن من انطلاقها، كان يحس موجة ثقيلة ولكن مقبولة، بل مريحة، من التماس الوثيق الحميم بين الأجسام التي همدت ـ في توتر متراخ ـ

وأمنت لحظة من لجاجة شدٍ وجذبٍ لا ينتهي وأحاطت بها جدران ملفوفة، مصقولة، توحي بالاطمئنان في قوتها الذاهبة إلى غرضها لا تحيد، هشة ولكن مفتولة الذبذبات محكمة الرقائق، بين زجاج النوافذ السميك المترب الشفافية، والمقاعد الجلدية البلاستيك اللامعة من احتكاك الأجسام العرقانة، والأعمدة النيكل الرقيقة المدورة. والأرضية، تحت الأقدام، تهب وتنزو وتنحط في انسياب متموج يقترن بأرض الشارع ويسيطر عليها بثقة.

وقد امتلأ الأوتوبيس بهدير المحرك والأنفاس الحميمة الهادئة والتلاصق الذي استقر، لحظة، إلى نوع من الرضى والقبول ـ ما أندره! ـ بين الناس بعضهم البعض.

وهواء النيل يدخل إليه، فجأة، من على صدر المياه الواسع العريض، فيغمض عينيه، ينفحه الهواء بنشقة تملأ قلبه براحة أخرى، كأنها صوفية، وكأنه لم يكن قد أوى إلى ذخر من التعلات، وذكاء الحيوان الذي يريد أن يتشبث بالحفة، ولا يقع.

في وسط براح المياه الرقراق مركب وحيد صغير أسود، يبدو من بعيد مشققاً أعجف، قشرة ضئيلة نحيلة يصعد بها وجه المياه ويهبط، في رفق. ينبثق منها شراع أبيض مفرود شاهق الارتفاع ممتلىء بالهواء، روح قوية عريضة الجناح، تشق طريقها بتوق ووجد إلى السماء الباردة الزرقة، يحملها جسم هزيل خشبي ضامر

تلعب به موجات صغيرة وسط تيه شاسع في سهل المياه الرمادية.

وتحت عينيه شط النيل ينحدر إلى التفافات كثيفة محروقة الخضرة من نباتات الحلفاء والبوص، ورقعة صغيرة ممهدة مزروعة، على الشط، بأعواد صغيرة من الذرة المهدلة الشواشي، وخصّ صغير مكسور من الخوص والطين الجاف، لا باب له، وعلى الشط الآخر اهتزازات نور الصبح، بلا صوت، بين حيوانات غامضة أليفة قاتمة الخضرة من الأشجار اللفاء العجوز والبنايات المرتبة المنسقة، طَهَّرها بُعد المسافة والضوء المائي من وحشيتها، وروّضها، وغسل عنها سوقية الحسابات العارية، لانت واستكنت، في نوع من اللدونة الطفلية، تحت نور الصبح وتراوح نغمات الخضرة وقتامة ماء النيل.

ارتفعت صرخة الفرامل فجأة ثاقبة، كاشطة، تنوح. لف الأوتوبيس على الشط لفة واسعة، سريعة جداً، ومالت الكتلة الضخمة، في هدير المحرك الذي يئز في ذعر وغضب معاً، وأحس العجلات تحته تخرج عن حافة الإسفلت الصلب الأمين وتثب، في رجة تهدّ العظم، فوق بلاط الرصيف، وتحتك، متشبثة، بتراب الشط الهين القوام. واندفعت من جانبه سيارة نقل، تكركر في ثقل، وفراملها تعول أيضاً في صرخة بطيئة، وأطراف حمولتها من أعواد الحديد الصدىء الناتىء تكاد تخترق زجاج الأوتوبيس، وكتلة الأوتوبيس تنزل على الجسر الطيني، منحدرة بمقدمتها العريضة إلى أسفل، وتدخل تحت كتف من

جرف بارز، مجوف، عريض. الأرض، تحت العجلات التي تدور سريعة تتلمس النجاة والحياة، لزجة رخوة طينية لكنها تحتمل ثقلها، حركتها الدائرة الجارية تهبشها في استماتة، وقد انحشر سقف الأوتوبيس تحت الكتف الطينية الثابتة، تخمشه في خشونة ولا تنشدخ مع ذلك، وتمر غيامة خاطفة من العتمة، في الفجوة القريبة من النيل، ولم يعد في العربة إلا لحظة صمت كاملة، كأنها الأبد، من غير أنفاس، انجابت فجأة كما سقطت فجأة، والسائق يدور والناس تهتف وتصرخ وتميل وتترنح، أذهلتهم المفاجأة وهبت صيحاتهم ودعواتهم الملهوفة، ملء عيونهم تقلبات متعاقبة من الأرض والماء والإسفلت والطين المتماسك، والسائق يغير السرعة في حمى البحث عن الخلاص، واليقظة الحادة، ويضغط على البنزين، ويرتفع الأوتوبيس بجرمه الثقيل وقوته الدافعة إلى أعلى ويصعد، وتتشبث العجلات الأمامية بثبات جديد في منحدر الأرض المرتفعة وتزحف مندفعة إلى فوق، على أرض تهدد كل لحظة بالانهيار ولا تنهار، ويتشمم خطم الأوتوبيس الأرض المرتفعة ولكنه لا يمسها، ينشق منها نفس حياته ورائحة التراب، ويشهق، شهقة واحدة متقلبة الزئير، يزوم في هريره الممتلىء الصدر، ويزحف إلى أعلى باستماتة، والعجلات ترتفع على أرض لا أفق لها، إلى حرف السماء تتوقل صاعدة على جرف لا يسقط ولكنه لا يصل إلى الأمان، في نفس اللحظة التي تدمدم فيها قعقعة مكتومة ويتخبط السقف بالكتف الترابي، وينطبق إلى تحت فوق رؤوس الناس

تحت ضغط الطين الجاف، ويتقوض جرف هش من كتل التراب الجامدة على الشط وتسقط الكتل الصغيرة من غير صوت ويرتفع منها رشاش بطيء، موسيقيّ الحركة، لا شأن له بشيء، وهناك، فوق، من بعيد، على الأفق الشاهق الارتفاع الذي لا تصل إليه العجلات في دورانها المتماسك الحرج المصمم الملهوف، تحت صفحة السماء، بإزاء خلفية العمارات الملونة بالبني المنطفىء والأزرق الكبريتي الكابي، هناك، وحدها، متميزة قاطعة الحواف، عربة تين شوكي، على عجلاتها الخشبية الدائريه الرقيقة الفروع، أخشاب العجلات المفرغة تبدو من خلالها زرقة السماء، رقيقة مشعة من المركز، منفرجة من بؤرتها المكورة الصلبة، في موسيقى هندسية ثابتة، وأكوام الحبوب الشوكية، عالية، غضة بعصارتها، نباتات عصّية وكثيفة الغنى، لا تبالي، تحديها لا رد عليه، وبجانبها صفيحة الماء تومض بشعاع لا تطيق عيناه أن تستقرا عليه.

عندما دخل إلى ميدان التحرير آتياً من اتجاه كوبري قصر النيل، في نور الصبح العاري الثقيل، وما زالت قدماه غير متوازنتين قليلاً، لا تكادان تستقران على الأرض، ورفع رأسه ليعبر الطريق، سمع صوت النافورة لأول مرة، واضحاً في الشمس، والمياه تسقط على الرخام المفكك المتآكل، وحفيف التراب في أوراق الشجر الجافة.

كان الميدان، تحيط به شوارعه المسفلتة وتخترقه ممرات متلوية وفسحات من الخضرة الناصلة، خاوياً. ميدان في وسط بلد

ريفية، وبنايات المجمع، والمتحف، والعمارات القديمة، من ناحية، رازحة كلها، وقصيرة، ومفلطحة، بهائم ضخمة كسول حول الجرن، مدت كتل أقدامها العريضة ودفنت رؤوسها في كومة عظامها الساقطة، الهامدة. ومن الناحية الأخرى اقتحام الهيلتون برشاقةٍ لا حياة فيها، سوقية جدران مصقولة حادة ملطخة بمساحات مقطوعة من الألوان الجارحة. مياه النافورة تعلو، في غير همة، وتقع، متناثرة القطرات على الحوض المكسور. والمماشي الترابية المتعرجة، خالية، عليها أوراق ممزقة يتطاير بها هواء مسف مترب. خلية الأوتوبيسات الحمراء تموج بنحل ثقيل قذر، تطن ببطء وتزاحم، لا تدور حول مركز إشعاع، تنسرب في الشوارع من غير وجهة. إعلانات النيون حمراء زرقاء تومض وتنطفىء، تسطع باهتة في النور الجامد المحايد، لماذا أضاؤوها في نور الصبح؟ وظلال الناس القاتمة في الشمس، تسير في غير سرعة وفي غير بطء، محنية، يحسها قامات سوداء رفيعة رثة هزيلة مجوفة، في وسط إشعاع رازح شامل، تختط طريقها إلى كنّ الحيطان وأمن الأثاث والكراكيب والمكاتب والسراير الرثة.

ومرت من أمامه، كأنما تأتي من عالم آخر، دراجة مسرعة رشيقة يدور بها صبي جنايني، ويستدير عسكري المرور ليفتح لها طريقاً خاوياً لامعاً أسود ليس فيه غيرها، وخلف الولد، على السلة الحديدية المعلقة بالدراجة، أكوام شاهقة من الأزهار الأثيثه المكتنزة الجسد، طرية غضة، يتدفق غنى ألوانها في النور،

في لدونة لحم حي وثير، ورقّته، مقطوعة، ملفوفة إلى بعضها البعض بخيوط خضراء من أعواد نبات، أشرطة حمالات تحز في بضاضة البياض وفي نداوة الألوان الوردية وتحدي الحمرة اليانعة وكثافة الزرقة المليئة بالعصير، خطفت أمامه وابتعدت، في كل مجدها الحسي. كأنما غرق في لحظة في طيات جسد امرأة باذخة، في لحظة الحرارة الأخيرة الناعمة.

كان الجرم الصغير الوديع، بسنامه الصغير على ظهره، يأتي من يمينه، من ناحية باب اللوق، بين سيارات قليلة متباعدة، تنحرف وتختفي في الشوارع الجانبية، تتجنب الميدان، وتنسل من تحت اللوحات الخشبية الضخمة ملصقاً عليها إعلانات الويسكي والسينما الورقية الممزقة الأطراف. وتراءت له قبلة شرهة بذيئة فاغرة فاها، لا تتحقق أبداً، بين وجه رجل بنفسجي كامد مخطط، وامرأة راقدة حمراء عارية الساقين تأكل جسدها الحروف المتضخمة المتعرجة.

اقترب من الشارع الخلفي عند مبنى وزارة الخارجية القديم، طويلاً، بارز الأسنان في وجه أسمر نحيف العظام، ووقف بجانبه، ينتظر إشارة المرور. كان الطريق مفتوحاً. هادئاً في قميصه الأبيض المشمور الأكمام، ذراعاه مسترخيتان، تنتهيان بأصابع مستدقة سوداء الأظافر، في ساقيه رشاقة توحي بقوة خفية، بمقدرة خارقة على القبض والتملك، في قدميه حذاء تنس من قماش حال بياضه إلى سمرة.

أحس رغبة أن يقول شيئاً فالتفت إليه، وقال بجد:

ـ لماذا لم يضربوه؟

ـ لا بد أن يأكل.

ـ لا بد أن نأكل كلنا، ونعيش.

ـ الجو حر.

ـ أول الصيف. الحر جاء مبكراً.

ـ سنعود بالليل لبيوتنا.

ـ وأين بيته؟

ـ لا بد أن يسير المركب. سواء كان النيل هادئاً أم غير هادىء.

ـ سيأتي الليل أبطأ من السفينة. هذا كل شيء.

التفت فجأة، فرآه. لا يتحرك، قريباً منه في وسط الطريق، وحده.

كان ينظر إلى الجرم الضخم قادماً من اليمين، بعيون عاقلة وشرسة، يتربص، دون أن تختلج فيه عضلة.

لا يصدر عنه صوت، لسانه العريض الأحمر المحبب، مدلى من فمه، مبرد حي مشحون بطاقته، ساقط من تحت الأنف الضخم المفلطح، أقدامه ثابتة لينة على الإسفلت الأسود، جبهته المرقطة مدورة، هابطة، وجفناه الثقيلان ينزلان على عينيه، كأنه نصف مغمض، مرهق من السفر، هادىء يعرف سيطرته،

ينتـظر بثقة لحـظته، وكـأنما تخلخـل الهواء من حـواليه، وفـرغ، وملأته شحنة جديدة غير مرئية من القوة والتهديد.

وأحس صدره يضيق. وألم غير مستبين ولكن موجـع وضاغط يقبض عـلى عـظام ضلوعـه، بخفـة ولكن من غــير أن يفلتـه، ويتهدد، وتتركز له نقط حادة في مكان قلبه.

ما زال يخب في فسحة الميدان الواسع، قادماً إليه، شـامخاً في كيانه البطيء الناسي، بنوع من الرشاقة المهـتزة الثقيلة، ينظر من عل إلى الأمام، في غير مبالاة.

سمــع صــوت الهــريــر العميق الأجــوف الخشن، يــتردد ويتضخم، وإن كان ما زال في طبقة تحتية مدفونة، ويملأ سكـون الميـدان الذي تتنـاوش صمته أصـداء خافتـة من نفـير سيـارات وصلصلة ترام بعيدة، وحفيف النافورة.

سـوف يثب الآن، وينقض عليـه بمخـالبـه المشرعـة الثـاقبـة الممـزعة، وسـوف تسقط كتلته المـدمرة بهجـوم مندفـع لا يوقفـه شيء، بحيـوية خـاطفة لا راد عليهـا، وينطلق الـزئـير في نشـوة الهجوم، وتنشب الأنياب المدببة في العنق الطويل. سـوف يختلط الخوار المفزَّع الشاكي الأجش، بزمجـرة النهش والتمزيق المتقـطرة دمـاً. ويسقط الجرم الشـاهق على الإسفلت، تحت دفعـة الوثبـة المنقضـة عليـه. ولكن تتشبث بـه، لا تفلتـه، السيقـان القـويـة القصـيرة القابضـة بكلابـاتها العـظمية النـافذة إلى مخـابيء الحياة بخساسيتها النابضة الخافية التي لا منعة فيها.

سوف تصطدم السيقان والأذرع والضلوع، وتصطرع الأجسام، وترتطم أعمدة العظام، بلا عقل. في شراهة الخطف والهبش، في التطام التخبط والتصادم، في تصميم الكسر والهصم، بين تهشم حجارة الحياة المنقوضة، وضجيج الأحشاء المكنونة مكشوفة فجأة للنور القاتل، بين صرخة النصر وحشرجة التشبث بالهواء الواهب للحياة.

كان ينهج، وهو يصطدم بالناس، ويهتفون به، يمرق بين السيارات وعربات الكارو المتزاحمة، وتلاحقه الشتائم والتوجعات الساخرة، ويهبط سلالم متربة بين جدران ضيقة متربة، وتصفّر خلفه عساكر المرور، وتنحرف الدراجات عنه وهي تقرع أجراسها دون توقف، ويتراجع الناس أمامه وهم يشوّرون بأيديهم ويزعقون به.

كان قد رآه. التقى به، وحده. وفي قلب الميدان.

وعرف الآن ماذا يمكن أن يحدث. ما يحدث بالفعل. وهو أيضاً لن يقول لأحد أبداً.

لكنه عرف أيضاً ماذا عليه أن يفعل، منذ الآن. عرف بقلب واجف قلق ما يجب أن يفعل، هل يستطيعه؟ هل يستطيع أن يقوم بالمهمة التي قرأها في العينين العاقلتين الشرستين؟

كيف وصل إلى الغورية؟ لم يكن في ذهنه إلا صور متعاقبة خاطفة من الترامويات والناس، من الزحمة والعربات، في مطاردة أفلت من قبضاتها المفاجئة المتهددة، من صرخاتها

وعجلاتها القاسية. أنفاسه تقتلع من صدره اقتلاعاً. لن تعود ساقاه، بعد قليل، تقويان على احتماله والاندفاع به، جرياً. الأرض تشدهما إليها، وصدره شق ضيق جارح. لكن ذهنه هادىء، في بؤرة ثابتة من حرارة ساطعة، يعد عدته لصراع لا يعرف أين يحدث، ولا كيف يخرج منه، ولكنه يعرف أنه سيذهب إليه، طائعاً أو برغمه، ويخور قلبه عندما تطوف بذهنه نتائجه، لا يسلم أبداً بها، ولكنه يعرف أنها محتومة وضرورية، أياً كانت. ويعرف أنه، طائعاً أو برغمه، سيخوض غمرته.

العينان القاسيتان تنظران إليه، من عمق شفاف أجنبي عنه، ما زالتا معاديتين. ولا رد عنده.

كان مسنداً ظهره إلى الكرسي غير المريح، يرفع رأسه إلى الحائط القديم، وضلف الشبابيك السوداء. كان الحمام يدخل ويخرج، برشاقة بطيئة هادئة، من أقفاص الجريد التي تحيط بها أوراق اللبلاب، فوق جدار القهوة البلدي. وقد صفت الكراسي في مفرق الطرق على الأرض المفروشة بالرمل المبلول. وقدة الظهر قد خففتها الظلال المتراوحة على تعريشة العنب الممدودة، سقفاً أخضر مثقوباً في أرابيسك غير منتظم، فوق الشارع، على أعمدة خشبية رفيعة حائلة الاغبرار. وجاء الصبي بإبريق الشاي المعدني الصغير الأزرق المدور، لم يعد يرى مثل هذا الإبريق كثيراً. يذكره من طفولته. كان إبريقه هو، لا أحد آخر يشرب منه الشاي. شاي طازج جديد، وكوب سخن ثلثه ماء سخن، وملعقة صفيح غارقة فيه، وسكر في منفضة سجاير

زجاجية مضلعة. هذه قهوة نظيفة، معتنى بها، حسنة الإضاءة.

ـ أهلاً وسهلاً. شرفت المطرح يا فندي.

ـ أهلاً بك. الله يشرف مقدارك.

ـ نورت الغورية.

ـ منورة بيكم وبالجدعان.

ـ رايح القلعة إن شاء الله؟ خان الخليلي؟

ـ أبداً والله. مشاغل.

ـ ربنا يعين.

ـ سمعت الأخبار؟ ماذا حدث في الميدان؟

ـ هل حدث شيء في الميدان؟

ـ أنا أسألك ماذا حدث في الميدان؟

ـ ماذا تريد أن يحدث في الميدان؟

ـ الساعة عشرة الصبح؟

ـ ماذا يمكن أن نفعل؟ لا بد أن يمر الواحد من الميدان، في الصبح أو المساء.

كان الرجل يستمع إلى الحديث. وقف على الناحية القريبة، بينما هو يقلب الماء الساخن بسرعة، يديره في الكوب ليطهره ـ أليس هذا هو المفروض أن يفعل؟

وعندما ألقى بالماء بعيداً عنه إلى الأرض المفروشة بالرمل،

كـان الرجـل ينظر إليـه، دون ابتسام، عـارفـاً. وجهـه الـداكن مغلق، عيناه مدفونتان، ليس فيهما مكان للرحمة. عظامـه متينة، فيـما يلوح، تحت القميص الـرمـادي المفتـوح خـارج البنـطلون الأسـود المكـوي. فمـه المكتنـز، بشفتيـه السـوداوين تقـريبـاً، الشهوانيتين، كأنه على وشك الابتسام. لم يبتسم.

ـ هل حدث شيء؟

كأنما حياته نفسها تتوقف على رد من الرجل.

ـ أتفضل الشاي.

ـ آه. الشاي. الشاي هنا عظيم.

ـ أصيب أحد؟

ـ لماذا؟

ـ في الميدان.

ـ الإنسان دائماً مصاب.

ـ لا. لا. أبداً.

سقط نور الشمس، مخففاً، من بين أغصان التعـريشة، عـلى الوجه الداكن. هل هي ابتسامة؟ أم لعب الضـوء بعينيه؟ رشف من الشاي، ما زال ساخناً، وضع الكوب، عـلى رخامـة المائـدة المدورة، ببطء.

ولم يرفع بصره من الأرض.

على الرمل المبلول المسوى، واضحة، قاطعـة الوضـوح، آثار

أقدام أربعة، مفلطحة، غاصت في لدونة الرمل من ثقل كتلة الجسم العريض، تنتهي كل قدم بغرز عميقة في الأرض، مدببة الغور. المخالب المقوسة، على بعد خطوتين من عينيه.

وظلال الأوراق ترتعش بين استدارات الضوء الصغيرة المهتزة، جاءت أصوات خبط ودق معدني بعيد ـ دكان سباك، أو ميكانيكي سيارات، سروجي على الأرجح، لا بد أنه سروجي سيارات، السروجية لا تحتاج مهنتهم إلى خبط ودق، مبيض نحاس، نعم، أو صائغ، ربما، أو بياع البسبوسة تحت المئذنة العتيقة، أقام منصة حلواه اللينة الندية بالعسل السريعة العطب جنب أحجار الجامع السوداء الألفية. وارتفع زقاء ديك، طويل، في همود الظهر المبهم، ينادي الفجر. وتكرر صياح الديك في السكون، مرة أخرى، ومرة. لم يرد عليه نداء آخر. وحشة هذا النداء لا تطاق. كل شيء يغمره سلام. وصمت. القهوجي على النّصبة، في الداخل المعتم الرطيب، يغسل الأكواب ويضع الصواني الصفراء التي تقطر ماء بعضها فوق البعض لها قرقعة نحاسية مكتومة الصدى، مبتورة.

ـ حصل لنا الشرف.

ـ الله يشرف مقدارك.

ـ من الناحية؟

ـ أبداً والله. مررت من هنا مجرد مرور.

ـ قلت تأخذ شاي؟

ـ شاي عظيم.

ـ أهلاً وسهلاً.

ـ تقول حدث شيء؟

ـ أي شيء؟

ـ أبداً. مجرد سؤال.

ـ حصل خير.

كان يصعد إلى الحارة من سلالم ضيقة حجرية متهدمة، ملبدة بطبقة قديمة من التراب. وجر قدميه في بركة صغيرة موحلة من ماء غسيل تتشربه الأرض. ومر من تحت شرفة خشبية مائلة مهجورة، تكاد تسقط من بين أحجار مكومة في دور علوي مهدود. وعبر أمام بقال مظلم مدفون تنزل إليه سلمة إلى الداخل، وأمامه صندوق الكوكولا أحمر مقشر الطلاء. وصمتت النساء لحظة، وهو يمر، جالسات على العتبات المتربة يرضعن ويثرثرن بصوت عال مرتاح ممدود، في قمصان نوم مقورة الفتحة واسعة باهتة. ذراعان ناعمتان تلقيان بماء وراءه، من حلة كبيرة. وجه امرأة، كأنها طفلة، لكنه نسائي، معابث، غض، ساخر، مشعث الشعر تحت المدورة التي تنتهي بكريات صغيرة مهتزة ملونة. ولد يقعي في وسط الحارة، في طريق الذاهبين الآيبين، وقد رفع جلابيته النظيفة حتى وسطه، واستغرقه الجهد المستحوذ الذي تركز فيه كل جسمه، باستمتاع، ورفع إليه عينين مستطلعتين، غائبتين، وجهه محتقن بالدم والجهد المريح.

ودار حـول الخرابـة الغائـرة الأرض، من وراء كوم تـراب عـال هبت عليه منه رائحة العطن والراز والصفيح الصـدىء والأرض التي ينتقع فيها المـاء على مهـل. هذه بيـوت قديمـة. ووراءه علب الطوب الملونة بألوانها الفاقعة، قد أخذت منذ الآن ترث وتتشقق شقوقاً رفيعة متعرجة سوداء.

أين يجده؟ كيف يمكن أن يجده؟ قال له أنه في كل مكـان، في الميـدان، في حواري الحلميـة، في شـوارع شـبرا، تحت المتحف الزراعي، قال له في ساحـات مصر الجديـدة، وفي الصاغـة، في أغوارِ الغورية، نعم جنب الجيزة، في جنينة الحيوانـات، أيضاً، مقفلاً عليه داخل القفص وخارجه، أيضاً، قـال له عند الساعة في سليمان باشـا، وعند السفـارات في العجوزة، والـزمالـك وفي الأزهر، قرب قرافة الإمام، وعلى العلو في العبـاسية، قـال له في كـل مكان. النـاس لا يعرفـون، خـطوه بخـطوهم، رجله عـلى رجلهم، أنفـاسه في صـدورهم الشرسة ونبضـه هو نبض قلوبهم المحطومة. لا تفهم؟ قـال له أنـه يدخـل الشارع - كـل شارع - بأقدام واثقة تعرف أنها تملك الشارع، كل شارع، قال له بأعين حنون قابضة، تحتضن الناس، ساقاه الأماميتان عليهما شعر ناعم وملبـد تفوح منـه رائحة الحيـوان الـوحشي الحـريفـة الـزاعقـة، شممتها، قال له، أنفاسه زخمة بخراء، ولكنك، تعرف، تحبها، وتنشقها وتجد فيها طعماً تريده، قـال له تجـد الأشلاء فيـها بعد، مـرمية عـلى التراب، أو عـلى الإسفلت، يرفعهـا عساكـر المـرور ويضعـونها عـلى الـرصيف، كلقمـة عيش، ويغـطونها بـورقتـين

مفـرودتين من «الأهـرام»، أو «الأخبار»، قـال لـه النـاس تلقي بصفيحة ماء على الدم الذي يسود لونه سريعاً، أو يرشونه بقليل من الرمل أو التراب، وعجلات السيارات على أي حـال سرعان مـا تمحو كـل أثر، قـال له أن قـطعاً صغـيرة ملوثـة من مـلابس الأطفال، ممزقة، يطير بها الهواء أحياناً، ويلفهـا الناس ويـرمونها عـلى جنب وتضيع، بـين قشرِ الـترمس واللب وورق كـراسـات التلاميذ الممزق، قال لـه ينسلّ من تحت البـوابات العتيقـة، بين دكَاكين الأحذية، وشوالات العطارين التي تنفث رائحـة التوابـل والبهارات، يحتك أحياناً بـأكوام الـذرة المغلفة بخضرتهـا، وتهتز عربات الترمس والذرة المشوي من صدمة جسمه بهـا، على شط النيل، بين المتنزهين والجـالسين عـلى العشب الناصـل، قال لـه النـاس لا تسرع ولا تجـري ولا شيء، قـال لـه صرير صـدره، وزحـيره، يتردد أحيـاناً، كـأنه من الـداخل، حيث لا يـوجد في الشارع إلا ضجيج المرور، كرير أجوف يتذبذب داخل إسطوانة القفص الصدري الوثيق، ويلتفتون فلا يرون شيئاً، هرير عميق به حشرجة طبيعية منتظمة، ثابتة الإيقاع، قـال له ضربـة واحدة تجعـل الرأس المبتـور، فاغـراً عينيه، صـامتـاً، يسقط بصـدمـة مكتـومة عـلى أرض الشارع، وتتحـاشاه السيـارات قليلاً وتنفث الحمير التي تجر عربات الكارو، في رعب مفاجَأ، ثم تشتد الزحمة من جديد، وتغلق الثغـرة في المرور، ولا يـدري أحد، ولا يهتم أحد حقاً ما إذا كانت القرقعة الخفيفـة الوزن، التـافهة في عـراء الشوارع وصخبها، جـاءت من العظام المتهشمـة، أو من قرقعـة

غازات العادم في السيارات، أو من خبط الأبواب التي تصطفق، قال له أحياناً يجد الأولاد على الرصيف، أسناناً منزوعة عليها تراب قليل، فينظفونها ويلعبون بها يا شمس يا شموسة، خذي سن الحمار وهاتي سن العروسة، يا شمس يا شموسة، خذي سن العريس وهاتي سن الجاموسة، قال له زمجرته أحياناً ترتفع في وسط النهار، توقف كل شيء، في دائرة ضيقة، لحظة من زمن، وتخرس كل شيء، ويتكرر الزئير المحتشد بالخوف والتهديد معاً، ولا ينظر الناس إلى بعضهم البعض، ينصتون لحظة، برغمهم كأنهم لا يصدقون، إلى الصوت المفزع المروّع معاً، ترتطم أصداؤه، في لحظة الصمت والإنكار، بين الجدران والنوافذ ولوحات الاعلانات، في قلب الميادين، أو في السكك المسدودة، وتسمع أحياناً أصوآت الضلف والأبواب الحديدية أمام الدكاكين والواجهات تنزل بسرعة، وأبواب الشرفات تصطفق، ولكنه بعد ذلك يعود فيسير، بخطواته التي لا صوت لها، مركب بطيء رشيق ضخم الجرم على النيل، تتموج أشرعة جسمه، بقوة ومعرفة، وسط الناس الذين يعبرون اشارة المرور، لا ينظرون اليه، ولا يرونه أيضاً، يثب، في خفة، بين أنوار الاتوبيسات الحمراء المتربة، تنحرف له قليلاً، وتبطىء، لتتيح له أن يعابثها، مرحاً، شبعان، قال له خشخشة مخالبه تسمع أحياناً، في الليل، على أبواب الشقق النائمة، ويستيقظ رب البيت، فجأة على الصوت، ويظن أنه يحلم، ويرفع رأسه قليلاً من المخدة، ويحبس أنفاسه، ينصت ويترقب، قال له أنه

يعرف، انه يعرف. قال له صحيح.

في كل خلجة منه حس مهدد قريب بهذا العناق الأخير، عندما تطبق عليه السيقان الشعراء الملتفة، في حنانها المصمم الخام، قاسية تؤدي واجباً.لذلك قسوتها ضرورية، تمسكه بمخدات الاقدام الناعمة المفلطحة، مخالبها الحادة مغمدة في جرابها، وتغمره الرائحة الحيوانية الزخمة التي لا فرار منها، الرائحة الخصيبة الكثيفة كثافة جسم يتحلل وتنسكب إلى الخارج عصاراته الطازجة في أول لحظات الفساد الأخير، ويلصق جسمه، في قبضة كاملة الاحاطة، بعضلات الصدر العريض، تزحر فيه أنفاس متضخمة الايقاع، هادئة، ويرتفع الكرير الأجش يملأ العالم، وتسطع الرائحة الملبدة الثقيلة تسد كل شيءٍ، للمرة الأخيرة، في حضن يضغط تلك الضغطة الرحيمة المهشمة النهائية التي يظلم فيها كل شيء.

ومواكب الناس تمر به، في باب الحديد، كل إلى وجهته، في وحدتهم واندماجهم معاً، ماذا يفعلون؟ هذه الوجوه التي لكم، منحوتة، مضلعة، منبعجة ومضغوطة، عرّتها الوحشة والقسوة وجففتها، شققها العرق وخطَّ فيها الألم والشبق أخاديد لا تمحي، هبت عليها وفتنتها أعاصير الشهوات والآمال الآمرة، وإنهاكات التحقق والإحباط معاً، كلها لا تفي بشيء وتترك الجوع متقداً لا ينطفىء، عطشانة دائماً، ويابسة، ذابلة، متطاولة، مسحوقة غضة، متهدلة، مشدودة في إيناع الصبا،

فتوة النضج، إشراقة خاطفة تمتلىء بعدها باللحم المتلمظ وتغص بالتجشؤ العفن، هذه العيون الطاردة، والمختبئة، والمتربصة والمقتحمة، والجامدة، أرواح محبوسة في حفر قبورها، تتواثب وتخمش وتنبح وتزأر وتكركر بضحك الضباع، من غير صوت. وأرواح تنادي، بصوت مكتوم. تنويعات شائهة على أصل بسيط وجليل قائم عند أساس صخر الجسم الذي يتحات ويسقط عنه فتات الحجر، لتترك مسوخ النقوش المعراة، طبقة بعد طبقة. ماذا يفعلون؟ إلى أين يذهبون؟

الوحش الذي يسكن قاع قلبي ترتفع به مياه حب غير مفهوم وغير مطلوب، ثم تتهدم الأمواج. قال له إن المركب لا بد أن يسير. أين سفينتي؟ قال له إن الصيف جاء مبكراً هذا العام وإننا بالليل سنعود إلى بيوتنا، وننام. قال له ماذا تريد أن يحدث، كننا لا بد أن نمر من الميدان.

عندما عبر الشارع أمام سينما مترو، دخل الممر الضيق، بين الحيطان المرتفعة المعتمة. أوراق الشارع ونفاياته النظيفة الجافة قد كنست وجمعت في كومة صغيرة غير منتظمة، جنب الرصيف، على البلاط المغبر القديم. ومر بذهنه أنه لم ينزل قط، ولم يصعد قط، مثل هذه السلالم الحلزونية الحديدية التي تدور وتدور مرتفعة إلى ظلمة فوقية غامضة، إلى سطوح حادة لا منفذ فيها، في المغرب البرونزي الصدىء القاتم الخضرة. كانت قدماه، من التعب والغياب، تختطان به طريقاً غير مستقيم. واصطدمت كتفه بصناديق الخشب المبقورة الجوانب الموضوعة في

أكوام قلقة حرجة تهدد بالانهيار. وكانت الدكك الخشبية على الأبواب، فارغة لا يجلس عليها أحد، لامعة مصقولة مجوفة في وسطها قليلاً من طول جلسة أجيال متعاقبة من البوابين المنسيين.

كانت تجلس على الأرض، ترضع ابنها، صعيدية، سوداء، مجعدة وجافة، تنحني عليه بلا اهتمام، في حركة حنان لا يطاق، لا يبرر شيئاً ولا يبرره شيء، ثدي صغير داكن متهدل، مشقق بالغضون الذابلة، وطري مع ذلك يحمل عصارته، حقبة لحمية ملآنة مقددة الجلد ترتطم بعظم الصدر ويمصها الفم الشره دون هوادة، أنثى حيوانية هزيلة ولكن عينيها تلمعان لمعة غير حيوانية، من طول تعرية لشمس صراع لا راحة فيه، من جفاف انتزاع العطاء من بئر ضحلة، ويأس الاقتراب والابتعاد، بلا نهاية، من الإشباع الذي يعد وينكث وعده، وينسى ويعود، في تكرار فقد كل نضارة وكل جدة. يرتفع بجانبها قفص جريد انكشفت أضلاع الخوص الرفيعة فيه، متخاذلة ومصلوبة في رقتها، لا تتهاوى، مفروشة عليه بضع صحف يومية، وكتاب «الشعب» بعناوين كوفية وصورة مئذنة سامقة، اصفرت جلدته وتلوت أطرافها من الهواء السخن. وجهها الأسود المتهضم مضيء بصبر آخر، والولد على حجرها، مضغة تبدو لا أهمية لها، يتشبث، سمكة على حافة شط جاف به ماء قليل، يدفع بساقيه وقدميه.

أقول لك سيدتي، حبي، أمي. سخف هش مثير للضحك.

أقول لك إنني أعتذر، إنني آسف، وحزين. عبث. لست أقول لك شيئاً، ولا أستطيع. ما أرخص هذه الدموع التي لا تريد ـ مع ذلك ـ أن تنسكب. لست أعرفك، يا أمي، لا شأن لك بي، لا شيء يصل بيننا، كل دعوى أخرى باطلة. قال له الوحش سفينة تبحر بنا في مياه مجهولة. والعالم وحش، والألم. ولا هذا أيضاً. لا.

كان يمشي، في آخر نور السماء، في طريقه الخاوي الذي تحيط به الأشجار، لا ينتهي، موحشاً، ليس فيه شيء، على الرصيف وتحته برك جافة من الحبوب الصفراء الدقيقة التي تسقط من أشجار الكازورينا في الصيف، يهب بها هواء أول الليل فتطير وتحط على إسفلت الطريق. مصابيح الشارع مضيئة زرقاء في ضوء السماء الأخير، كرات زجاجية تشع بنور لا جدوى فيه، وهو يسير، نائماً مغمض العينين، في إرهاق كامل وصل به إلى حدود الحلم، في غيبة لا يوجد فيها إلا جسمه، وحش مهدود، يمضي دون إرادة، دون مخالب، دون عقبة، دون وصول، بلا انتهاء. يحس السيارات تمرق من على جانبيه، في حلمه، صامتة، أصواتها خافتة ومتمكنة في قوتها، يحس الناس على الرصيف غرباء، وأخوة يأمن لهم، ظلالاً قائمة في نور وعيه الداخلي الخافت، عاكفين على طريقهم، دون توقف، ودون إسراع.

نداء يهتف به:

ـ إدوار . . إدوار . .

الصوت في هدوء الشارع يأتيه في حلم فسيح معتم، الصوت نافورة تنبثق بين جدران كثيفة، يرتطم ماؤها بالحجر الصلب القديم، ويسقط.

أهو نداء باسمه في الليل؟ لا، ليس هو. اسمه غريب عنه، ما صلته به؟ والصوت غريب.

ودون أن يفتح عينيه، كان يبدو له أن البيت بعيد.

فهرست

«في اللحظة التالية كانا معاً، تحت الماء، في الترعة العكرةِ السُمرة، وقد انعقدت الظلال وبقع الفضة السائلة معاً، واندمجت، وتقلبت في اهتزاز الموج البطيء. والماء قابض وضحضاح، والأرض تميل تحت جسميهما، لا تكاد، لزجة، رملية، ويشبان معاً، ويخبطان بالأذرع، ولا رشاش هناك، يحتفظان بالوجه فوق الماء، يشهقان في طلب النَفَس، ثم ينقلبان في الماء معاً، دون غرق، يحتضن بين ذراعه الجسد المبتل الذي التصقت به الثياب وارتسمت كل تفاصيله تحتها، في شفافية محسوسة، تدفعه ليلتصق بكل استدارة فيها، ويطفوان معاً، في تموّج متماسك، متمددين يحملهما الماء دون جهد، ولا يخرجان فوق سطحه، والماء قد انحسر بجلبابها الطويل عن ساقيها المستديرتين اللامعتين من البلل، في لحمها، تحت يديه، بضاضة جديدة طازجة تومض في عتمة الماء

من قصة «البرج القديم»

اللوحة للفنان عدلي رزق الله

دار الآداب

هاتف ٨٠٣٧٧٨ - ٨٦١٦٣٣

ص.ب ٤١٢٣ - ١١ بيروت

36
5s
0